ثروت الخرباوى

تجربة شخصية

قلب الإخوان

محاكم تفتيش الجماعة

قلب الإخوان

محاكم تفتيش الجماعة

ثروت الخرباوى

تجربة شخصية

دار الهلال

رقم الإيداع
٢٠١٠/١٣٩١٥
IS.B.N
977-07-1413-5

تقديم

كان هذا الكتاب مفاجأة بالنسبة لنا ، فحين قرأناه أدركنا أننا أمام ثروة من الأسرار الإخوانية المذهلة. ومن ينقلها لنا غير ثروت ؟. حيث أورد الكاتب حقائق ووقائع من "قلب الإخوان" حقائق غائبة عن جماعة الإخوان غابت عنها فغابت عنا ولم يعرفها الرأي العام ، ووقائع رهيبة تدور حوادثها داخل هذه الجماعة التي تحولت من جماعة دعوية إلى جماعة سياسية ثم انتهت إلى معبد كهنوتي فكان رجال المعبد القطبي. نسبة إلى سيد قطب. كما يقول الكاتب هم السبب الفاعل في "قلب الإخوان" إلى وجهة أخرى لم تكن من أهداف مؤسس الجماعة حسن البنا .

أما المفاجأة الأخرى فكانت في الطريقة التي صاغ بها المؤلف كتابه ، فقد استطاع بحسه الأدبي الراقي أن يحول أحداثا قد تبدو جامدة إلى حياة صاخبة مشوقة ممتعة حتى أن القارىء ليتفاعل معها ومعه في كل حدث مر بهِ أو عليه .سرد الكاتب تجربته مع الإخوان في صورة أدبية بديعة ومشوقة هي أقرب ما تكون إلى السيرة الذاتية وحول تلك السنوات التي قضاها في جماعة الإخوان إلى نص أدبي وسياسي واجتماعي في آن واحد جمع فيه بين الأدب المتمثل في لغته الراقية وصياغته المحكمة ، كما عرفنا من خلاله ما يدور داخل أروقة أخطر جماعة سياسية مرت على مصر في الحقب الأخيرة ومدى تأثير هذه الجماعة في أفرادها وفي عموم الناس تأثيرا اجتماعيا ودينيا وسياسيا .

والآن نترك القارىء مع الكتاب ليقرأه على مهل ويقرأ سطوره وما بين السطور ويستمتع بلغته الأدبية وأحداثه

المشوقة ونحن على ثقة من أن أي متصفح لهذا الكتاب لن يتركه إلا بعد أن يفرغ منه تماما ويتفرس وثائقه ، ولكن هذا الكتاب سيعيش طويلا في وجدان القارىء فصاحبه لم يكن يكتب بقدر ما كان ينزف من مشاعره ، فنقل لنا بقلبه وقلمه صورة كاملة من "قلب الإخوان" ومن ينقلها غيره فقد كان يوما ما في "قلب الإخوان" .

الناشر

إهــداء

بما أنه يجب أن يكون لكل كتاب إهداء، فإن هذا الكتاب يجب أن أهديه لأحد، وليس هناك بالطبع أغلى من الأهل ولعل نفسي حدثتني بأن أهديه إلى روح أبى رحمه الله أو أهديه إلى أمى أطال الله فى عمرها ومتعها بالصحة فقد كان لهما الدور الأكبر فيما وصلت إليه، ولعل نفسي حدثتني أيضاً بأن أهديه إلى أشقائي وزوجتي وأولادي مرام ويحيي... كل هذا حسن وأنا بالقطع أهدى لهم جميعاً هذا الكتاب، إلا أن هذا الكتاب الذي هو بضعة من نفسي وقطعة من أيام قضيتها في جماعة الإخوان المسلمين بحلوها ومرها لذلك فإنه من اللائق أن يكون إهدائي لأحد الإخوان، والذي يستحق هذا الإهداء قطعا هو الشهيد حسن البنا رحمه الله مؤسس هذه الجماعة ولعله إن مد الله في عمره لأحدث طفرة في العمل الإسلامي ولكن كل شيء بقدر ومن بعده دخلت جماعة الإخوان في أزمات وأزمات أجادت وأخفقت وأظن أن البنا لو خرج من قبره الآن لقطب جبينه في وجه القطبيين الذين أخرجوا الجماعة من سياقها.. إليك يا إمام الإخوان إليك يا حسن البنا رحمك الله أهدى إليك هذا الكتاب.

المؤلف

الفصل الأول

في البدء كانت كلمة

«عندما ننظر إلي القمر في ليلة اكتماله فإن نوره سيستلب عيوننا ويخطف أفئدتنا إلا أننا لن ندرك تحت وطأة هذا النور أن القمر ما هو إلا جسم معتم شديد الظلام والوحشة كثير الصخور والحفر» .

لكل شيء بداية ... ولكل شيء نهاية ... الحضارات والأمم والجماعات تبدأ ثم تفنى ... والكائنات تولد ثم تموت .... هذه حقيقة كونية ، وليس من شيء يسير تحت الشمس إلا وله دفقات قوة وعنفوان ... وله خفقات ضعف ومرض .. هذه سنة الحياة ، والإنسان الفرد الذى يدب على الأرض يحمل فى مزوده الفجور .. ويكنز فى وعائه التقوى ... هذا هو تقدير الله... أما الأمم أو الجماعات فإنها ليست أوعية فارغة .. إذ فيها بشر تستمد فتوتها وخيريتها منهم .. فإن أحسنوا أحسنت ، وإن شمخوا شمخت .. أما إذا أساءوا أساءت ... وإذا تدنوا تدنت وعاشت بين الحفر .. سيان كانت تلك الأمة أو الجماعة مسلمة أو غير ذلك ... هذه سنة الله فى كونه قدرها تقديرا .

أما البداية فكانت كلمة .. والكلمة ميراث أبينا أدم لنا .. ألم يتعلم الأسماء كلها من الله سبحانه وتعالى .. ومنه عرفنا وظائف الأشياء وتوارثناها فى كل الحضارات ... سماء... سحبت الشمس الماء من البحر فكانت من السحب ، وكانت سحابة .. واحتوت السحابة على ماء .. وهطل الماء علينا .. فكانت سماء .

أما الكلمة فكانت إخوان .. إخـ وان .. دخلت الكلمة قلبى فخلبت لبى.. وقعت فى روعى فتمثلتها سحابة ماء تسبح فى سماء الدعوة ... تهطل علينا بالخير .. يكفى أن تقول " إخوان " لكى تدغدغ مشاعرى .. تهبط على روحى كلمة " أخ " كما يهبط الوحى على النبى .. فالأخ هو جبريل أخيه .. ينصحه ويصاحبه ويشد من أزره ولا يظلمه أبدا ... رسمت كلمة "أخ " فى مخيلتى فقرأت حروف المروءة ... الإخوة مروءة ... قرأت كلمة "إخوان " فتراءى لى الأنصار والمهاجرة إذ أخى بينهما النبى صلى الله عليه وسلم ... الأخوة فى الدين غلبت أخوة الدم.

وضعت الكتاب بجانبى ولكنى وضعت الإخوان فى قلبى ، وأخذت أنهل من

معين الكتب كي أستزيد منهم وعنهم .. حبسهم عبد الناصر لخلاف سياسي .. لعن الله السياسة .. عذبهم ... أعدمهم ... بكيت بحرقة وتعاطفت معهم ، وتمنيت أن أعرفهم لأذود عنهم .

في الجامعة كان اللقاء الأول .. هل تعرف سحر اللحظة الأولى ؟ المرة الأولى دائماً هي أروع وأشجى وأعذب المرات ، حيث يسبقها الغموض وتكتنفها الرهبة ، وتخالطها رغبة جارفة في المعرفة .

ولعل مشاعر المرة الأولى قد ملكت زمام قلب جدي وسيدي آدم عندما رأى جدتي وسيدتي حواء تسعى بين يديه ، وكأنني آدم عليه السلام اقتحمتني اللحظة الأولى عندما رأيت عمر التلمساني وبرفقته عبد المتعال الجابري وتخيلتهما أبي وجدي .. فشغفت بهما حبا ... هؤلاء هم " الإخوان المسلمون " دعاة ... فكانت الكلمة .. دعوة .

وعدت إلى الكلمة المسطورة في الكتاب .. أبحث عن الإخوان المسلمين.. ضحايا .. أبرياء لاشك في ذلك عندي .. فرية اسمها النظام الخاص والاغتيالات افتراها رجال الثورة واختلقها النظام الحاكم .. محاولة اغتيال عبد الناصر في المنشية ... تمثيلية ... ومحاكمات وإعدامات ... بكيت كمدا واحترقت جفوني كربا مما حدث لهم .

أردت المزيد فذهبت لمسجد عين الحياة واستمعت للشيخ عبد الحميد كشك وخرجت من عنده لمسجد الخلفاء الراشدين واستمعت لجمهرة من دعاة الإخوان .. الشيخ الغزالي بهرني .. الشيخ عبد الستار فتح الله أمتعني ... الشيخ سيد سابق علمني ... الشيخ القرضاوي سما بي ... هؤلاء هم " الإخوان المسلمون " ... فقهاء ... فكانت الكلمة ... فقه .

فتحت التلفاز فرأيت شابا من الإخوان - غدا نجما إخوانيا بعد ذلك - اسمه عبد المنعم أبو الفتوح وهو يحاور رئيس الدولة أنور السادات بجرأة فريدة .. فلم يهبه .. ولم يتتعتع في موقف تذل فيه أعناق الرجال .. ومن بعد رأيت شيخهم ومرشدهم التلمساني وهو يحاور السادات فيقول له : سأشكوك إلى الله ... هكذا هم الإخوان قوة في الحق.... فكانت الكلمة ... قوة .. وكانت الكلمة ... حق .

عدت إلى الجامعة وصادقت من ظننت أنهم إخوان .. كنت معهم يدا بيد في كل الأنشطة إلا أنني كنت حرا طليقا فلم يستوعبني أحدهم .

فرغت منهم إلى الكلمة وظللت زمنا فى دائرتها لم أخرج منها .. كلمة أقرؤها .. وكلمة أسمعها ... متيما كنت أنا بالإخوان .

بعد الجامعة عملت بالمحاماة .. ولكن فى مكتب أحد السياسيين الوفديين الكبار ... محمد علوان .. سألته عن الإخوان فحدثنى عن حسن البنا .. كان قد رآه فقال لى : (ألخصه فى كلمتين .. عبقرية التأثير وعلوّ الهمة) .

قلت له ولم لم تدخل الإخوان فقال وهو يجتر الحكمة : (بسبب القيود التنظيمية التى تضعها الحركة وتسوس بها أفرادها ، وأنا أبحث عن الحرية فلم أقبل أن أكبل نفسى بقيود التنظيمات الحديدية) فاستغربت كلمة أستاذى عن القيود التنظيمية والتنظيمات الحديدية وتكبيل الأفراد فقلت لنفسى : من لا يعرف الإخوان يبالغ ، فكان نقد الآخرين للإخوان فى عينى مبالغة وكانت الكلمة .. أبرياء .

وبرفقة أستاذى محمد علوان جلست مع التلمسانى فهش فى وجهى وبش .. قال يوم رأيته :(نحن الإخوان ضد العنف .. ضد الاغتيالات .. كان النظام الخاص كبوة .. ولكل جواد كبوة ..الإخوان لكل الأمة وليست لفريق بعينه .. سيكون الإخوان تيارا جارفا يصب فى نهر الأمة .. وسيخرج الإخوان من ضيق التنظيم إلى سعة الدعوة) ... هؤلاء هم الإخوان ... حكماء .... فكانت الكلمة ... حكمة .

ذات يوم عاد الشيخ عبد المتعال الجابرى الداعية الإسلامى الزاهد من غربته فى أمريكا فعدته فى المشفى مع رفقة من شباب الإخوان ، فقال له أحدهم وكأنه يطمئنه على ثبات الشباب وغيرتهم على الإخوان : ثلة الغوغاء تهاجم الإخوان وتنتقدهم لو كان الأمر لكم لطلبت منكم أن تحاكموهم .

ابتسم وقال له وقد أخذه الوهن على فراش المرض : على رسلك يا بنى .. ومن نحن حتى نحاكم أو ندين ، وهل نملك أن نتسلط على قلوب العباد ... إنما نحن نُذكِّر وليست لنا سيطرة على أحد .. نحن دعاة ... إنما يحاكم ويحقق ويدين فى الحياة الدنيا من كان همهم الدنيا ، ونحن طلاب آخرة .

هكذا هم الإخوان ... دعاة لا قضاة ... فكانت الكلمة ... رحمة .. وكانت الكلمة دعوة .

فى البدء كانت كلمة .. ثم كلمة .. ثم كلمة .. ثم كلمة .. فتكونت دائرة من الكلمات..دائرة ذهبية .. بدأت بالدعوة وانتهت بالدعوة ... وبينهما قوة .. حق

.. فقه .. حكمة ... براءة .. رحمة .

وفى نقابة المحامين كانت لنا أيام .. جلستُ مع مختار نوح - الذى كان من نجوم الإخوان وقتها - وقرأت معه القرآن وسمعتُ منه واستمعتُ له ... ومن بعدها صرتُ من الإخوان .

صرت أنا من الإخوان ... وصار الإخوان منى .

وفى الإخوان نزفتُ نفسى .

وللإخوان سكبتُ نفسى .

وفى الإخوان نسيتُ نفسى ... فتلاشيتُ .. كقطرة ماء تبخرت .

وحين يوم وقعت قطرة الماء من السحابة .. فتألمت .. ومن ألمها ستنبت خضرة .

وذات يوم عرفت قطرة الماء أن الضياء ينير الطريق ولكنه أحيانا يعمى البصر .

الجموح المستطير

«نحن نتعبد لله بأعمال النظام الخاص للإخوان المسلمين قبل الثورة».

نطقها المستشار مأمون الهضيبى على مهل وبصوته الرفيع الحاد وبنغمة خطابية حماسية مفعمة بالفخر والزهو والخيلاء ، ثم نظر ذات اليمين وذات الشمال ليرى أثر كلماته ووقعها على الشيخ محمد الغزالى والدكتور محمد عمارة .. لحظتئذ ضجت القاعة بالتهليل والتكبير والتصفيق .... نظرت إلى الوجوه التى تجاورنى والتفت بوجهى للخلف فوجدت الفرحة قد استولت على مجامع القلوب وسيطرت على مشاعر الحاضرين... ورغم أننى هتفت مكبرا بلا وعى منى مع آلاف الإخوان الذين اكتظت بهم القاعة ، وكأن الحالة الشعورية الجمعية التى خيمت على الجميع احتوتنى وامتدت إلى نفسيتى وسحبتنى بداخلها ، إلا أننى استغربت نفسى بعد ذاك وتعجبت من هتافى وكأن الذى هتف وكبَّر ليس أنا بل شخص غيرى .

وبعد أكثر من ساعتين من الجدل والصخب وبعض من العلم والفقه والفهم انتهت المناظرة التى عقدها معرض القاهرة الدولى للكتاب فى شتاء ١٩٩٢ والتى دار موضوعها عن " مصر بين الدولة المدنية والدولة الدينية " وانصرف الجمهور الذى كان حاضرا بالآلاف إلى شأنه ، إلا أننى مكثت وحيدا بالقرب من القاعة التى شهدت المناظرة أفكر فى وقائعها وأحداثها .. لم يعجبنى فكر

فرج فودة أحد أقطاب العلمانيين فى مصر ، إذ كان يبدو متحاملا على تاريخ الإسلام والمسلمين وكأن عينه كليلة لا ترى إلا السيئ ... إلا أن مأمون الهضيبى عضو مكتب الإرشاد للإخوان المسلمين ـ وقتئذ ـ لم يعجبنى هو الآخر رغم أننى كنت أحمل له فى قلبى ساعتئذ مشاعر مفعمة بالمحبة والتقدير ـ ... ففضلا عن كونه عمل بالقضاء لفترات طويلة ... والقضاء يعطى لمن جلس على مقعده نظرة شمولية وحيادية متوازنة ... إلا أن طريقته فى المناظرة كانت تحمل قدرا من التعالى والجفاء ، ومنهجه فى الجدل كان ذاتيا ، وآية ذلك أنه ترك الحديث عن الإسلام كله فلم ينافح عن تاريخه ورجاله ، وكان جل همه أن يدافع عن تاريخ الإخوان المسلمين ورجال النظام الخاص فيه الذين حملوا السلاح قبل الثورة ونفذوا العديد من عمليات الاغتيال !! ... توقف عقلى عند دفاع المستشار مأمون عن رجال النظام الخاص فلم يستسغه .. ولم تقع صيحته المدوية بتعبد الإخوان لله بالاغتيالات موقعا حسنا فى نفسى عندما استدبرت معناها .

وعن بعد رأيت المهندس أسامة الغزاوى الذى كان يشغل فى منتصف الثمانينات من القرن الماضى موقعا قياديا للإخوان المسلمين بمنطقة شرق القاهرة ، وكان يزاملنى فى أسرتى الإخوانية بمنطقة الزيتون، إلا أنه لسبب لا أعلم تفصيلاته انقطع عن الإخوان ، وتناهى إلى سمعى همسا من بعض الإخوة أنه قطع صلته بالجماعة تماما بعد محاكمة إخوانية تعرّض لها .

ويبدو أنه رآنى هو الآخر فعبر الطريق إليَّ وتوجه ناحية الأريكة الخشبية التى كنت أجلس عليها وهو يبادرنى بالسلام قائلا : السلام عليكم ورحمة الله .. أأنت فى المناظرة هنا ؟ ...ثم ضاحكنى مداعبا وهو يقول : الآن عرفت لماذا ارتبك فرج فودة وهو يحاورهم يبدو أنه رآك فعرف أن القضاء قد حم .

قلت وأنا أبادله الضحكات : لا .. يبدو أنه رآك أنت فعرف أن رجال النظام الخاص للإخوان لا يزالون على قيد الحياة ويمتلكون مقاليد الأمور... بالمناسبة أريد أن أسألك سؤالا مهما .

قال وهو يستمر فى مداعبته : سل تُعط

ـ لماذا كان المستشار مأمون يدافع عن الاغتيالات التى نفذها رجال النظام الخاص رغم أنه صاحب عقلية قانونية ... نبت فى بيت قضائى ووهب حياته للقضاء والدعوة !! ؟.

ـ يا عزيزى لا يفل الحديد إلا الحديد .. فرج فودة لا ينفع معه إلا هذا .
ـ ولكن "هذه مناظرة لله ثم للتاريخ
" وليس من أجل عيون فرج فودة نخالف ما نعتقده
" ما قاله المستشار سيصل حتما إلى أجيال قادمة وسيكون مُعبرا عن رأى الإخوان"
" ذات يوم قال حسن البنا عن أفراد النظام الخاص الذين نفذوا عمليات اغتيال أنهم ليسوا إخوانا وليسوا مسلمين
" أياتى اليوم "المستشار مامون ليقول للعالم أجمع أننا نتعبد لله بأعمالهم (!)... .. كيف هذا وأيم الله (!)..»
«لقد أثارت كلماته حيرتى وأدخلت الريبة فى نفسى ..»
«أى عبادة تلك التى قتلت مسلمين آمنين على أنفسهم !!...»
«فى ليلة وضحاها وعلى لسان رجل القضاء الكبير يصبح قتل النقراشى رئيس وزراء مصر عبادة !!..»
" تنقلب المعايير رأسا على عقب فى منطق المستشار ليصير قتل المستشار الخازندار عبادة !!..
«وكمثل الساحر اللبيب الفطن أو الخطيب البليغ ذرب اللسان يقف المستشار عضو مكتب إرشاد جماعة الإخوان ليبدل الحقائق ويسحر أعين الناس وعقولهم ... فتتحول عملية قتل سيد فايز الإخوانى الذى نشأ فى معية الجماعة ثم اختلف مع النظام الخاص إلى عبادة نتقرب بها إلى الله!!»
«حدثنى يا أسامة .. أهذا هو التاريخ الذى سنعلمه للإخوان وللناس أجمعين ؟».
«كيف سقط المستشار مامون هذه السقطة وهو الذى رأيت فيه قيمة فكرية ودعوية سامقة ؟ (!)»
«ليست هذه منهجية الإخوان !!.. أتبدلت الأفكار ؟ وسكنت أفكارنا التى درجنا عليها فى مقابر أمواتنا من السابقين الأولين كالتلمسانى وغيره ؟».
قال أسامة وهو يبدى دهشته من كلامى المتدفق : هذا كلام كبير يا أستاذ .. أنا معك طبعا فى أن هذه عمليات إجرامية وليست تعبدية ولكن للضرورة أحكام .
قلت وأنا أبدى امتعاضى : ضرورة ! أى ضرورة ؟ قل لى بربك .. أهل

تؤيد تلك العمليات التى خرجت عن سياق الجماعة وأفكارها المعتدلة؟.

سحب أسامة ابتسامة من داخله ووضعها على وجهه وهو يقول : أنت تعلم أني ضد أى عنف ولو تستر وراء الدين .. ولكنى أقصد أن المستشار مأمون له ضروراته التى دفعته إلى هذا القول .

قلت محتدا : ضرورات !! ألا يحتاج هذا التبرير إلى شرح وتوضيح ؟ .

أطال أسامة التفكير وتلفت بريبة إلى الناحية الأخرى ثم قال ببطء وكأنما يبحث عن الكلمات : سيكون لنا لقاء ... سأنتظرك فى الخميس القادم فى شقتى التى تعرفها لأتحدث معك فيما غمض عليك .

★★★

يسكن أسامة الغزاوى فى أول شارع طومانباى بحى الزيتون فى أحد العقارات القريبة من قسم الشرطة .. وكان قد انضم إلى الإخوان المسلمين قبلى بسنوات ونشأت بينه وبين الحاج مصطفى مشهور - نائب المرشد العام للإخوان المسلمين وقتها - صلات قوية ، إذ كان الحاج مصطفى هو أول نقيب لأسرة ينخرط فيها أسامة عام ١٩٨٠ (الأسرة هى البناء الإخوانى القاعدى .. وتتكون من خمسة أو ستة أفراد يرأسهم شخص يُطلق عليه لقب النقيب .. وكل مجموعة أسر تشكل شُعبة ، وكل مجموعة شُعب تشكل منطقة ، وكل مجموعة مناطق تشكل محافظة) وبين بيت أسامة وبيت الحاج مصطفى بضع خطوات لا غير ، أما أنا فقد كنت أسكن وقتها فى آخر شارع طومانباى من ناحية " ميدان ابن الحكم " القريب من منطقة تجنيد القاهرة ولذلك جمعتنى شعبة إخوانية واحدة مع أسامة ثم جمعتنى معه أسرة إخوانية واحده كان هو نقيبها .

كنت قد اعتدت سابقا على الذهاب بشكل دورى إلى أسامة ، فقد كانت معظم لقاءات الأسرة تعقد عنده، وأحيانا كنا نبيت بشقته فى اليوم الذى تنعقد فيه الكتيبة الشهرية (الكتيبة هى لقاء شهرى للشعبة يستمر للفجر ويشمل درسا دينيا وصلاة قيام) ... إلا أن ذهابى إليه انقطع مذ ترددت الأنباء عن ترك أسامة للجماعة .... وقتها قام المسئولون فى الشعبة بإعادة ترتيب الأسر من جديد وإعادة تصنيف الإخوة وتصنيف درجاتهم التنظيمية (أخ - أخ عامل - أخ مجاهد) خاصة وأن المحاكمة التى تم عقدها لأسامة استبان منها - وفقا لما وصل إلينا - أن هناك حركة تمرد اشترك فيها بعض

الإخوة ، وأن حركة التمرد هذه قادها اثنان من أفضل الإخوة هما المهندس أسامة الغزاوى والمهندس عمرو التلاوى ، إلا أن أحدا لم يقل لنا ما هو هذا التمرد وما هى أسبابه !! اللهم إلا أنهما رفضا تنفيذ أمر إدارى ... ولم يفصح أحد لنا عن كنه هذا الأمر ... وعندما سألت مسئول الشعبة عن حقيقة ما يتردد عن التمرد وعن الأمر الذى خالفه الأخان ، قال لى وهو يرتدى ثياب الفقيه الحكيم : (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) ثم أردف قائلا : ثق فى القيادة دون أن تسأل !!... فآثرت الصمت وعدم تكرار السؤال تأدبا مع الرجل ، إلا أن غياب أسامة عن الإخوان أحدث غصة فى قلبى .. ودهشة فى ضميرى .. فقد كان تصورى أن الجماعة ينبغى أن تطلق طاقات الأخ وجهوده وأن توجهها لمسارها الصحيح لا أن تكبلها وتعطلها وتستنزفها فى خلافات إدارية .. لم يستوعب قلبى أن أخا يترك الجماعة بسبب اختلافه مع القيادات فى قرار ما !! أو رفضه تنفيذ قرار ما مهما كان شأن هذا القرار .. فنحن فى دعوة ولسنا فى شركة ... ولكن تزداد حيرتى ويخاصم النوم جفونى حينما يتردد فى خافقى صدى كلمات سمعتها من بعض الإخوة فى كتيبة من الكتائب :(ينبغى أن يكون الأخ بين يدى مرشده أو نقيبه أو مسئوله كالميت بين يدى من يغسله يقلبه كيف يشاء) .. نعم قد يكون هذا من باب المحبة .. أستوعب هذه المقولة فى هذا الإطار وقد قرأتها من قبل لبعض الصوفية .. فهل يتم تطبيقها بشكل تنظيمى جاف ؟!!.. وتزداد حيرتى .. أيهما على خطأ إذن .. أالجماعة أم الأخ ؟ .

كان الإخوة عقب ذلك يترحمون على أيام هذين الأخوين وعلى النشاط الدعوى الذى كانا يمارسانه ويبعثان من أجله الحيوية والنشاط فى منطقة كانت فى السابق تقع تحت سيطرة الجماعة الإسلامية من ناحية ، وسيطرة الجمعية الشرعية من ناحية أخرى ... ولكن يبدو أنه لا كرامة لأخ يترك الجماعة ... فقد كانت تجابهنا ـ حين نذكرهم بفضل هذين الأخين ـ مقولة صلدة متدثرة بوشائج الإيمان : لا فضل لأخ على الجماعة مهما كان قدره ، فالدعوة تسير بفضل الله بكم أو بغيركم ، ولكن الفضل كل الفضل للجماعة على الأخ !!.

فى الموعد المحدد بعد صلاة المغرب كنت أجلس مع المهندس أسامة فى حجرة الاستقبال بشقته السكنية متدثرا بمعطف شتوى يقينى قر الشتاء ،

وأرتشف قدح الشاى الساخن وأنا أستعيد معه ذكرى أيام خلت ذهَبَتْ إلى عالم الذكريات ... وسبقتنا إلى عالم البرزخ ... أو إلى الدار الآخرة .. إلا أنها ما زالت مخبوءة في نفوسنا وضمائرنا فأصبحت بضعة من شخصياتنا وثقافتنا وأخلاقنا .. استروحت معه نفحات تلك الأوقات التى حفظنا فيها ما تيسر لنا من القرآن الكريم والحديث الشريف ، وتذكرنا سويا دروس المساجد التى كنا نحضرها لعلماء الأمة مثل الشيخ الغزالى والشيخ سيد سابق والشيخ عبد اللطيف مشتهري والشيخ إبراهيم عزت والدكتور سليمان ربيع .. وكيف أننا كنا لا نُفرِّق فى التلقى بين علماء خرجوا من رحم الإخوان وعلماء وهبوا أنفسهم للأمة بلا تحيز لجماعة عن أخرى .

وهنا تحول الحديث إلى وجهته الأصلية .. انتفضت شراييني وسرت قشعريرة فى جسدى واحدودب ظهرى وأنا أتحدث إليه بصوت مبحوح لا يكاد يُبين : أنتظر منك الإجابة يا صديقى عن سؤالى الذى طرحته عليك بعد مناظرة معرض الكتاب ..هل تذكره ؟

قال بعد ان ارتسمت على وجهه مخائل الجدية : أذكره ولا أنساه .. ثم تحدث أسامة بما لم أتوقعه وبما هو أغرب من الخيال .



الفصل الثانى

أسامة الغزاوى يتحدث

«مرض الذئبة الحمراء هو مرض يصيب الجسم ينتج عن خلل في الجهاز المناعي يجعله بدلاً من أن يحمي جسده من البكتريا والفيروسات فإنه يهاجم الجسم الذي يحميه متصورا أن هذا الجسم هو العدو الذي يجب أن تتم مواجهته .. يحدث هذا في الإنسان كما يحدث في الجماعات».

قال أسامة بصوت خافت: حدثني الشيخ عبد المتعال الجابرى الذى كان يدرس لنا اللغة العربية فى مدرسة ابن خلدون الثانوية بحلمية الزيتون وكان قد قضى أكثر من نصف عمره فى السجون بحسب أنه كان من قيادات الإخوان فضلا عن أنه كان رفيق درب للشيخ عمر التلمسانى رحمه الله : ... أنه بعد حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ وبعد أن دخل النصف الثانى من نوفمبر مات المستشار حسن الهضيبي مرشد الإخوان.. أفضى إلى ما قدم .. وكل نفس ذائقة الموت .. مات الرجل الذى خلف حسن البنا فكان مرشد المحنة كما يطلقون عليه ، مات الرجل وترك فراغا هائلا فى الجماعة .. مات وترك سفينة الإخوان تتلاعب بها الأمواج ولا ربان لها .. كان هذا الرجل يحمل فى نفسه شيئا من رجال النظام الخاص فقد كان يعتبر أنهم هم الذين أدخلوا الجماعة فى محنة قاصمة باقعة وتسببوا برعونتهم وجهلهم فى حل جماعة الإخوان الذى أسفر عن مقتل حسن البنا ، لذلك كان أول قراراته التى أبرمها بعد أن تولى الأمر هو حل النظام الخاص وفصل عبد الرحمن السندى مسئول هذا النظام ـ الذى كان شابا حدثا مضمحل العلم والثقافة ـ وفصل بعض القادة الآخرين الذين يتبعون هذا الشاب ويأتمرون بأمره ... وقام عقب ذلك بتعيين أحد رجاله مسئولا عن نظام خاص جديد يدين له هو بالولاء والطاعة ، فكان أن وضع على رأس الفريق الجديد "يوسف طلعت" الذى كان من المجاهدين فى فلسطين ... وعندما احتدم الخلاف بين النظام الخاص الجديد والنظام القديم قام أحدهم باغتيال سيد فايز الذى كان وقتها أحد المسئولين الجدد فى النظام الخاص بتشكيله الجديد ، وأشارت يد الشك والاحتمال إلى أحد أفراد النظام القديم الذى تم حله ولكن لم تتأكد الظنون .. وحدثت محنة الخلاف الأزلى بين الإخوان وحكومة الثورة ودخل الإخوان السجون ، والتقى فى الزنازين أفراد النظام الخاص جديدهم وقديمهم ، ودخل معهم الشيخ سيد

قطب الذى كان قد هجر الشعر والأدب والنقد وتفرغ للكتابة عن الإسلام وتفسير القرآن وأطنب فى ذكر تصوراته عن المجتمع الجاهلى بعقلية الشاعر الأديب لا بعقلية العالم الفقيه .. ثم جاءت فترة منتصف الستينات ودخل الإخوان مرة ثانية إلى السجون فى قضية سيد قطب التى اتُهم فيها - مع آخرين - بمحاولة اغتيال عبد الناصر وقلب نظام الحكم .

وفى السجن التقى رجال النظام الخاص بسيد قطب وتلاميذه فكان الاتحاد وكان التلاحم ، بل كان التماهى والتمازج ، فقد كان رجال النظام الخاص يفتقدون إلى المرجعية الدينية التى توصل لهم عمليات الاغتيال وتبيحها لهم من الناحية الشرعية ، إذ نفض الشيخ سيد سابق يده منهم وتركهم إلى غير رجعة وأمن أن فى عقول بعضهم آفة ، وبعد أن كانوا يطلقون عليه " مفتى الدماء " تبرأ منهم وقال قولته الشهيرة " نعم أنا أفتى فى دم الحيض " فوجد النظام الخاص بغيته فى الشيخ سيد قطب الذى استمد فكره من الشيخ «أبو الأعلى المودودى» الذى ولد وترعرع فى ولاية حيدر آباد بالهند فى مجتمع تتعدد فيه الديانات ويكثر فيه عبدة البقر والشجر والثعابين .. تأثر الشيخ سيد قطب بأبى الأعلى المودودى أيما تأثر ومنه أخذ فكرة "الحاكمية" حيث اعتبر أن المجتمع المصرى يقوم على أسس جاهلية لعدم احتكامه لله سبحانه وتعالى فى الحكم .. هذه الجاهلية التى تعتدى على سلطان الله فى الأرض فتتحاكم إلى تشريعات وأنظمة وضعها تصور بشرى محض كما فى الآية القرآنية (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت) بالمخالفة للآية القرآنية (إن الحكم إلا لله) ومن هنا قام سيد قطب بوضع تصور حركى من خلال تقسيم المجتمع إلى فريقين .. مجتمع المسلمين والمجتمع الجاهلى .. وأوجب على المجتمع المسلم أن يتقوقع على نفسه فى محضن إسلامى ، ويعتزل المجتمع الجاهلى شعوريا وفقا لقاعدة (واهجرهم هجراً جميلا) لكى ينأى بنفسه عن شوائب الجاهلية وخشاشها ، إلى أن يتمكن ويشتد ساعده من ناحية وتصبح عقيدته نقية خالصة من الأدران من ناحية أخرى ، حينها يستطيع المجتمع المسلم المنعزل أن يفرض نفسه ويرفع رايته رغما عن أنف الجاهليين .

وضع سيد قطب أفكاره هذه فى كتابه معالم فى الطريق وصاغها بطريقته الأدبية البديعة وبألفاظه الشاعرة المرهفة ودون أن يمر بها على عقلية العالم

الفقيه الأريب الفطن .. ومنه انطلقت تلك الأفكار إلى رجال التنظيم الخاص الذين استراحت ضمائرهم وهدأت أفئدتهم لتلك القسمة ... مجتمع جاهلى حتى النخاع ... ومجتمع إسلامى بلا انقطاع .. وبتلك الفكرة تشرعنت عمليات الاغتيال التى قاموا بها ، ومن خلالها أصبح اغتيال النقراشى والخازندار مواجهة مع المجتمع الجاهلى الذى يحارب مجتمع الإسلام ، والذى هو فى جاهليته أشد وطأة من تلك الجاهلية التى سبقت الإسلام ، فكان من الطبيعى أن يلوذ رجال النظام الخاص بحياض الأديب الشاعر ويتدثرون بمعطفه .

كانت أفكار سيد قطب منبتة الصلة عن منهج حسن البنا ومسلكه الدعوى .. ففكرة حسن البنا لا تقوم أبدا على جاهلية المجتمع بل تقوم على أن الناس ابتعدوا من خلال التطبيق عن منهج الإسلام وأن هذا الابتعاد لا يمس عقيدتهم ولا يخرجهم من الملة كما أنه لا يدخلهم فى نسق جاهلى ، وكل ما يحتاجون إليه هو الدعوة العلنية المفتوحة التى يجب أن تصل إلى الجميع حتى تستقيم أخلاقيات الناس وتتفاعل سلوكياتهم مع ما يدعو إليه الإسلام فى المعاملات والعبادات دون أن نضع أهمية لضم أحد إلى التنظيم ،فالتنظيم هنا يقوم بدور القائد الذى يدعو ويوجه لا بدور الوعاء الذى يضم ويحتوى .. ولا أخفيك سرا أن الخطأ الذى جر الوبال على إخوان البنا هو إنشاء فرقة النظام الخاص التى كانت بمثابة الجسم الغريب عن الجماعة ، وقد حكى لى الأستاذ فريد عبد الخالق أن حسن البنا تقابل معه بالقرب من كوبرى قصر النيل قبل اغتياله وقال له مقولته الشهيرة " لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما أنشأت النظام الخاص " .

أما فكرة سيد قطب من حيث الوسيلة فتقوم على الانتقاء والتجنيد والتجييش وذلك عن طريق استثمار الدعوة العلنية من أجل تكوين تنظيم سرى شديد الإحكام عن طريق جذب الأنصار وضمهم لـ " ماكينة الدعوة " حتى تقوى تروسها وتصبح قادرة ذات يوم على مواجهة المجتمع الجاهلى .. وبهذا نستعيد بعضا من قبس جيل الصحابة ذلك الجيل القرآنى الفريد .. فإذا دعونا الناس وتركناهم فى المجتمع الجاهلى ينهلون منه فسوف تذروهم رياح الجاهلية ويصبحون وقتها دما يتدفق في شرايين تلك الجاهلية العرجاء ، وتفت معيتهم مع الجاهليين فى عضد المجتمع المسلم ... كانت هذه هى

الأفكار التى التف حولها الجمع الفريد وبها قام الحلف المقدس بين النظام الخاص وتلاميذ سيد قطب .... كان هؤلاء هم " إخوان سيد قطب " .

مات حسن الهضيبي عليه رحمة الله الذى كان قد أدرك خطورة هذا الحلف المقدس ، وكان التلمساني وغيره قد نبهوا الهضيبي بخطورة هذه الأفكار ودقوا له ناقوس الخطر.. فالتقى الهضيبي ذات يوم وهو في مشفى السجن بسيد قطب فكان أن سأله : هل تُكفر المسلمين يا شيخ سيد .... فنفى سيد قطب هذا الأمر وقال إنه غير مسئول عن فهم الناس لأفكاره على غير محلها وعلى غير مقصدها .. فلم يجد الهضيبي أمامه من بد إلا كتابة كتابه الوحيد " دعاة لا قضاة " لمواجهة حلف فريق النظام الخاص والقطبيين .. ولكن يبدو أن هذا الحلف سيشتد عوده ويقوى بنيانه فيما بعد .

وفي ليلة التحفت بظلام الأيام الأخيرة من شهر فبراير البارد من عام ١٩٧٥ وبعد صلاة العشاء اجتمع فريق من النظام الخاص في بيت أحد سدنة هذا النظام وحراسه وهو الحاج أحمد حسانين في قليوب البلد ، وكان صاحب الدار قد خرج من السجن منذ أسابيع خلت قبل هذا الاجتماع التاريخي مع آخر دفعة نالت الإفراج من الإخوان ، بدا اللقاء وكأن الجمع يحتفلون بخروج ثلة ليس لها نظير من أركان التنظيم من سجنهم الذى احتضنهم ما يقرب من العشرين عاما .

وفي حجرة فقيرة في أثاثها ومحتوياتها تطل شرفتها على أرض زراعية شاسعة ، جلس كل من مصطفى مشهور وكمال السنانيري وأحمد الملط وحسني عبد الباقي وخامسهم صاحب الدار أحمد حسانين وهم يستدبرون تاريخهم مع الجماعة ورحلتهم في السجون وخطط المستقبل الذى يجب أن يكون .

كان قد مضى على وفاة المرشد الثاني حسن الهضيبي عام وعدة أشهر ، ومازالت الجماعة بلا مرشد جديد إذ مات الهضيبي - الأب - دون أن يعيد تشكيل التنظيم ويحدد آلياته ، اللهم إلا أنه التقى في الحج قبل وفاته ببعض المهاجرين من الإخوان وأخذ منهم البيعة .... وبعث النشاط في أرواحهم ، وتعاهدوا معه على إعادة تشكيل حركة الإخوان في البلاد التى يعملون فيها .

وبعد عودته إلى مصر انشغل الرجل بجمع الشمل مع من اختلف معهم من قبل مثل الشيخ محمد الغزالي الذى كان قد هاجم الهضيبي هجوما ضاريا

فى بداية الخمسينات واتهمه بأنه من عتاة الماسونيين !! وتعكر الماء بين الاثنين وتم فصل الشيخ الغزالى من جماعة الإخوان إلى غير رجعة وأخيرا تداعى العالمان العلمان للتسامح والتغافر وتم الصلح بينهما .

لم يمهل القدر حسن الهضيبى حتى يقوم بإعادة بناء الجماعة التى كانت قد تفككت وانمحت وتاه رجالها فى البلاد يبحثون عن معايشهم ، فعاجله الموت الذى هو نهاية كل حى .

كان الحاج مصطفى مشهور أكثر الجميع حماسة وحيوية فى اجتماع قليوب الخطير ، فقد اقترح أن يتم تعيين مكتب جديد للإرشاد من الحاضرين فى الاجتماع ... وأن يتم اختيار مرشد جديد خلفا للمستشار حسن الهضيبى .. وهنا أصر الحاج أحمد حسانين على مبايعة الحاج مصطفى كى يكون مرشدا للإخوان إلا أن الحاج مصطفى رفض هذا الأمر تماما واقترح أن يتم اختيار شخصية أخرى ... شخصية لا يعرفها أحد ولكن يسهل من خلالها إعادة تشكيل الجماعة وفقا لرؤية هذا الفريق ، شخصية سينساها التاريخ ولن يعرف ملامحها ... وكان من ألف السرية واعتادها لا يأتلف إلا مع شخصية سرية !! .

مفاجآت مذهلة

توقف أسامة الغزاوى عن الحديث ، إذ كانت صلاة العشاء قد دخل وقتها ، فخرجنا سويا كى نصلى فى مسجد العزيز بالله وهو من المساجد الشهيرة فى المنطقة والتى وقعت تحت سيطرة التيار السلفى ... وبعد الصلاة أخذنا نتجول على مهل بطول شارع طومانباى حيث استطرد أسامة قائلا :

" هل تعرف أسماء من تولى موقع المرشد العام للإخوان المسلمين وجلس متربعا على سدة القيادة فيها ؟ ستقول لى وأنت تقطب جبينك استنكارا من السؤال : طبعا أعرفهم .. فهم الشهيد حسن البنا والمستشار حسن الهضيبى ثم الأستاذ عمر التلمساني وأخيرا الأستاذ حامد أبو النصر .. لا يا عزيزى لقد تسرعت في الإجابة فأخفقت فيها ... هناك مرشد آخر لا تعرفه ولا يعرفه أحد .. " .

" غالبية الناس وغالبية الإخوان المسلمين لا يعرفون أنه بعد وفاة المستشار حسن الهضيبى بعام وفى هذا الاجتماع الذى حدثتك عن طرف منه وقع اختيار الحاضرين على المهندس حلمى عبد المجيد ـ الذى كان الساعد الأيمن

للمقاول الشهير عثمان احمد عثمان وكان من الرعيل الأول للإخوان ـ ليكون مرشدا للجماعة .

وبعد يومين ذهب هؤلاء القوم إلى من وقع عليه الاختيار فى بيته بالدقى وعرضوا عليه الأمر برمته ، وقالوا له إن مسئولية الدعوة بل مسئولية الإسلام أصبحت معلقة فى رقبته ، وأنهم لا يقبلون بغيره بدلا ، فوافق الرجل إلا أنه اشترط شرطين لذلك أولهما أن تصدر موافقة بتنصيبه فى هذا الموقع من الأعضاء الباقين على قيد الحياة من الهيئة التأسيسية من الإخوان وكان عددهم يزيد على الثلاثين بقليل ، أما الشرط الثانى فهو أن يكون مرشدا سريا لا يفصح عن اسمه أحد ، على أن يظل قائما بمهامه إلى حين إعادة تشكيل التنظيم ثم يترك موقعه لغيره ... ولم يتحقق الشرط الأول بشكل كامل إذ لم تصدر بيعة أو موافقة إلا من عدد يزيد على عشرة أفراد بقليل فلم يحصل الرجل على شرعية ، إلا أنه قبل على مضض أن يقوم بدوره المرسوم له حتى حين .

وبعد عام تقريبا من هذا اليوم قام بعض الإخوان فى المملكة السعودية بتوزيع بيان على كل الإخوان فى الأقطار العربية كان عنوانه (المرشد السرى المجهول يقود الجماعة إلى المجهول) وظل هذا البيان التحريضى يجوب الأقطار العربية ويقع تحت يد الإخوان فى كل البلاد بلا ملل ولا كلل فيحدث فى نفوسهم مساحة من الامتعاض... وقد أورد المفكر الإخوانى السابق عبد الله النفيسى خبر هذا البيان بحذافيره فى كتابه الشهير " أوراق فى النقد الذاتى " وقد تسبب هذا البيان فى حالة قلق لأفراد النظام الخاص الذين يعرفون أن معظم الإخوان لا يرحبون بهم ، فأسرعوا فى نهايات عام ١٩٧٦ إلى رجل حيى دمث الخلق عف اللسان من الذين شربوا الدعوة من حسن البنا هو عمر التلمسانى وعرضوا عليه أن يتولى موقع المرشد وأن يعيد تشكيل مكتب الإرشاد من جديد ، وكان التلمسانى شخصية شديدة المرونة ، وقد سمحت له مرونته أن يرتبط مع جميع الأطياف الإخوانية من أفراد النظام العام أو أفراد النظام الخاص بروابط قوية ووشائج متينة من المودة ... فظنوا من فرط دماثة خلقه أنه رجل مهيض الجناح ضعيف التأثير وأنه سيكون مجرد واجهة ، فى حين سيتحركون هم من خلف الستار حيث سيتحكمون فى مقاليد الأمور " .

★★★

أعجزتني رواية أسامة الغزاوى عن النطق والتعقيب ... يا لها من مفاجأة مذهلة.. أيعقل هذا ؟ مرشد سرى ولا يعرف عنه أحد شيئا ؟ !! ... وى كأننى اكتشفت فى هذا اليوم اكتشافا مذهلا تتحير منه الألباب وتتيه منه العقول .

استكمل أسامة روايته المدهشة قائلا :

"لعلك تعرف الأستاذ فريد عبد الخالق الذى كان من المقربين من حسن البنا ، ولكن لعلك لا تعرف أن أفراد النظام الخاص كانوا من أحرص الناس على استبعاده من قيادة التنظيم هو والدكتور توفيق الشاوى القانونى الشهير والأستاذ عبد المتعال الجابرى ... أما الأول فقد جلس على ضفاف الجماعة يحضر فى مناسباتها العامة دون أن تكون له صلة بالشأن الداخلى للجماعة ، والثانى هجر الكل وسافر إلى المملكة السعودية وتفرغ لتأسيس مدارس إسلامية وكتابة مؤلفات عميقة فى القانون والاقتصاد الإسلامى والشورى فى الإسلام ، أما الثالث فقد سافر إلى أمريكا حيث فر من رجال النظام الخاص ونذر نفسه للدعوة العلنية المفتوحة هناك فى إحدى الولايات بأمريكا يرافقه فى ذلك الدكتور حسان حتحوت الذى كان من التلاميذ النجباء لحسن البنا .

سادت فترة صمت طويلة بيننا إذ كنا مازلنا نسير فى الشارع الطويل فى حين كان الليل قد دخل إلى نصفه الثانى دون أن نشعر بتوغله ، وكنا قد اقتربنا من سيارتى فجلسنا فيها كى نحتمى بها من لسعة البرد وبعض قطرات من المطر غشيتنا.. وبعد أن أحكمنا إغلاق نوافذ السيارة أكمل الغزاوى :

كنت أجلس عند الأستاذ فريد عبد الخالق وسمعته وهو يدلى بحوار لأحد الصحفيين ، فقال من ضمن ما قال : " ظن رجال النظام الخاص أنهم أحكموا السيطرة على الجماعة وبالفعل اشتكى لى الأستاذ عمر التلمسانى من أنه أصدر أمرا ذات يوم ، إلا أن هذا الأمر لم يتم تبليغه لأحد فاحتد الأستاذ عمر على المسئول عن التبليغ وهو الأستاذ كمال السنانيرى أحد رجال النظام الخاص الأقوياء وأحد رجال مصطفى مشهور الأمناء ، وسأله عن الأسباب التى دعته إلى عدم تبليغ القرار ، فقال السنانيرى : لأن قيادة الإخوان لم توافق على قرارك ... فتعجب التلمسانى وقال : وهل من قيادة غيرى ؟ .. فقال السنانيرى : نعم ... نحن القادة ... مصطفى مشهور واحمد

حسانين وحسنى عبد الباقى وأنا ... ثم قام السنانيرى بدعوة أحد العاملين فى مقر الدعوة وسأله أمام التلمسانى قائلا : لو أمرتك أمرا وأمرك بغيره المرشد فلمن ستطيع ؟ فقال الرجل : لك طبعا .

وهنا أيقن التلمسانى أنه يجب أن يدفع فى الجماعة دفقة من الشباب يؤمنون به وبأفكاره فكان عبد المنعم أبو الفتوح وأبو العلا ماضى وعصام العريان ومختار نوح وغيرهم .ومن خلال هؤلاء الطلبة ـ وقتها ـ دخل جيل الشباب بالآلاف إلى مدينة الإخوان فكان هذا هو الإحياء الثانى للتنظيم ، بيد أن أطياف الجماعة المختلفة اقتسمتهم فيما بينهم ، فمنهم من تتلمذ على يد أفراد النظام الخاص وانضوى تحت راية أفكارهم ، ومنهم من تتلمذ على يد التلمسانى والمدنيين من شيوخ الجماعة وآمن بفكرهم وطريقتهم .. فريق مع عسكرة التنظيم وفريق مع مدنية الجماعة .

يقول الأستاذ فريد عبد الخالق : وقد طلب منى التلمسانى أن أكون بجواره إلا أننى لم أستطع العمل مع هؤلاء .... من أجل ذلك قام التلمسانى بفتح منافذ الجماعة لكل أفراد التيار الإسلامى ... ومن أجل ذلك أيضا قام باستدعاء بعض الطيور المهاجرة من الإخوان فأعاد إلى مصر فى النصف الأول من الثمانينات المستشار مأمون الهضيبى رجل القانون المتمرس وابن المرشد الثانى وكان يعمل آنذاك مستشارا قانونيا لوزير الداخلية السعودى ، فأسند إليه إدارة بعض الملفات السياسية رغم اعتراض أفراد النظام الخاص عليه ، فقد ظل الهضيبى الابن بعيدا عن الإخوان مدة عشر سنوات كاملة بعد أن صدر ضده قرار بالفصل من الجماعة بعد مشكلة تنظيمية كبرى نشبت بينه والشيخ مناع القطان مسئول الإخوان بالملكة والأب الروحى لهم هناك !!

كاد الهزيع المتبقى من الليل أن يلتقط أنفاسه الأخيرة ويحمل ظلامه ويرحل ، وكانت قطرات المطر الخفيف قد انقطعت وكأنها تتأدب مع المصلين الذين سيبرحون دورهم عند الفجر للصلاة فى المساجد فغادرنا السيارة لنذهب مترجلين إلى أحد المساجد استعدادا للصلاة... وغمرتنى حينذاك رعشة برودة وأنا أحدث نفسى : ها هى المفاجأة الثانية التى لا يمكن أن يتوقعها أحد !! المستشار مأمون الهضيبى ابن المرشد الأسبق حسن الهضيبى تم فصله من الإخوان فتركهم لمدة عشر سنوات !! ليت شعرى

أحقيقة هذه أم نحن فى عالم العجائب الإخوانية؟.

أخذت أستزيد أسامة الغزاوى بشغف فقال :

كانت هذه هى القصة التى سمعتها من الأستاذ عبد المتعال الجابرى كما قلت لك ، وسمعت طرفها الآخر من الأستاذ فريد عبد الخالق ، وقد حاولت الاستيثاق من الحاج مصطفى ذات يوم عن صحة خبر المرشد السرى فلم يجبنى وقال لى هذا علم لا ينفع .. لا تتحدث إلا فيما يعنيك .. إلا أننى كنت أتحرق شوقا لاستجلاء غموض هذه القصة التى أخفتها القيادات عن الجميع وكأنها عورة ينبغى طمسها أو ذكرى بائدة يجب أن تكون نسيا منسيا !!..".

" ذهبت إلى أخينا الدمث الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح عضو مكتب الإرشاد الذى تعرفه فقال لى : كنت حاضرا فى هذه الأيام ولكن المرشد السرى لم يكن المهندس حلمى عبد المجيد بل كان الشيخ زكى وهو من شيوخ الإخوان الكبار وقتها ، وتم اختياره ليدير دفة الجماعة إلى أن يتم اختيار مرشد جديد .. وردد مثل ذلك الدكتور السيد عبد الستار المليجى " .

" وذكر أخونا الدكتور عصام العريان نجم الإخوان البازخ المثقف فى لقاء خاص جمعه ببعض الإخوة أن المرشد السرى لم يكن حلمى عبد المجيد .. بل كان الشيخ حسنى عبد الباقى أحد سدنة التنظيم وأحد أهم قيادات النظام الخاص .." .

" بيد أن كبار الإخوة أجمعوا على أن أبو الفتوح والعريان والمليجى كانوا وقتها من صغار الشباب ولم يكن يسمح لهم بالإطلاع على تلكم الشئون ، وأن المرشد السرى كان هو حلمى عبد المجيد الذى خرج بعد ذلك من زمرة الجماعة ولم يظهر فى أى مناسبة من مناسباتها " .

دارت رأسى من تلك القصة الغريبة التى جعلتنى عندما استمعت لها ما بين مندهش ومتعجب ، إلا أن الحرارة التى كان يتحدث بها أسامة والاسترسال الذى حرك لسانه جعلا صدقه عندى لا مراء فيه .

كانت رسل الفجر قد بدأت فى التجلى وظهر بعض المصلين وهم يغادرون دورهم فى طريقهم إلى المساجد انتظارا لأذان الفجر ، وكنا قد قطعنا الشارع مرة أخرى وحديث الغزاوى المشوق لا ينتهى وكأن جعبته لا تنفد من الأسرار .

تدخلت فى الحوار مستفهما : نعود مرة أخرى إلى سؤالى الذى جرنا إلى

هذه القصة العجيبة .. تلك القصة التى لا أظن أن أحدا من شباب الإخوان يعرف تفصيلاتها أو يدرك مراميها ومغزاها والتى قطعاً تحتاج إلى بحث وتنقيب للوصول إلى كنهها ... ولكن يظل سؤالى حائرا .. لماذا يا أخى قال المستشار مأمون الهضيبى فى معرض الكتاب عبارته المؤلمة التى أظن أن فكره يرفضها ؟ لماذا قال " نحن نتعبد لله بأعمال التنظيم الخاص قبل الثورة "؟!!

قال الغزاوى وقد أخذه التعب وظهر على صوته الإرهاق : عندما وضع المستشار مأمون الهضيبى قدمه على أرض الإخوان فى مصر أدرك أن رجال التنظيم الخاص يسيطرون .. ولكنه وضع يده في يد بعض رجال الأستاذ عمر التلمسانى ووثق صلته بالأستاذ صلاح شادي رحمه الله وكوّن معه لجنة سياسية ضموا إليها عددا من المفكرين من غير الإخوان ، وبعد أن مات الأستاذ التلمسانى وجاء الأستاذ حامد أبو النصر أدرك الهضيبى الابن أن مقاليد الأمور آلت كلها إلى رجال التنظيم الخاص وأنه لن تكون له مكانة إلا إذا صانعهم ومالأهم فبدأ يتقرب إلى كبيرهم الحاج مصطفى مشهور ، أما هم فقد نظروا إليه فوجدوه مستشارا كبيرا مرهوب الجانب مكث سنوات من عمره قريبا من الحكام والملوك إذ كان كما قلت لك مستشارا لوزير سعودي من آل سعود فسعدوا بصحبته واستناموا له خاصة وأنه أخذ يدافع عن أعمالهم قبل الثورة ... ومن هنا فإن المستشار مأمون كان يفسح لنفسه مجالا داخل الجماعة من خلال كلماته في معرض الكتاب عنهم ليسحب منهم أهم ملفات التنظيم كي يديرها بعقلية مدنية بعيدا عن الطريقة العسكرية الآلية التى أتقنوها ولم يعرفوا غيرها ... وعن قريب سيصل هذا الرجل إلى بغيته إذ من السهل عليه أن يسيطر عليهم ويسوسهم بذكائه وحنكته ودهائه .

ولك أن تعلم أن المرشد السابق الأستاذ التلمسانى وضع المستشار مأمون في لجنة سياسية بالإخوان هدفها وضع تصور لحزب مدنى وكان معه فى هذه اللجنة الأستاذ صلاح شادى ولكن يبدو أن المستشار مأمون عدل عن هذه الفكرة حاليا وتوقف عن المضى فيها بعد أن وجد أن رجال النظام الخاص يمقتونها ويبغضون من يطرحها وكأنه قتل أباهم لأنه فى مخيلتهم لا تستقيم الجماعة فى وجود حزب ولا يصلح الحزب مع جماعة ... وقد قال لنا الحاج مصطفى مشهور ذات يوم ونحن نناقشه فى جدوى عمل حزب سياسى

أن حسن البنا قال: إن الأحزاب مخالفة للشرع !! .

وبعد وفاة الأستاذ التلمساني تم مناقشة فكرة الحزب في مكتب الإرشاد وقتها قال الحاج مصطفى : إن فكرة الأحزاب السياسية تخالف الإسلام وتدعو إلى التفرق وقد انبثقت الأحزاب من ثقافة الغرب الملحد ولن ندخل معهم جحر الضب ولكننا سنعيش في طهارة الجماعة (يقصد لن نستدرج لعمل حزب سياسي) ومن بعدها وضع المستشار مأمون برامج الأحزاب - التي تم إعدادها - في سلة مهملات الجماعة حتى يكسب رضاء رجال النظام الخاص .

لا أعرف لماذا وقع في خلدي عندما استمعت إلى التبرير الذي ساقه الغزاوي قصة " تاييس " التي كتبها الروائي الفرنسي " أناتول فرانس " عن تاييس والراهب بافنوس.. ذهب بافنوس إلى تاييس كي يسحبها إلى دائرة الإيمان فخرج هو من دائرة الإيمان ... فهل تتكرر القصة ؟ .

أذن الفجر في نهاية الكلمة الأخيرة لأسامة وكنا على باب مسجد عاطف السادات ذلك المسجد الكبير الضخم القابع في الثلث الأخير من شارع طومانباي والذي كان في يوم من الأيام مجرد زاوية مقتطعة من مركز شباب طومانباي ثم أصبح بعد حرب ١٩٧٣ مسجدا ضخما وقد امتد إليه نفوذ التجمعات السلفية دون أن يكون لجماعة الإخوان أي وجود في أنشطته وبذلك سيطر السلفيون على الجامعين الكبيرين بالمنطقة كلها ... مسجد العزيز بالله ومسجد عاطف السادات .

وبعد أن صلينا الفجر دعانا البعض إلى الجلوس في مقرأة متخصصة في تعليم أحكام تلاوة القرآن ولكننا اعتذرنا للإجهاد الذي سيطر علينا وانصرفنا وأقدامنا لا تكاد تحملنا إلا أن عقلي كان في أوج نشاطه وتوهجه ، ومن حالة الشبق المعرفي التي اعترتني قلت لأسامة الغزاوي ونحن في الطريق إلى بيته حيث تقف سيارتي : هل لك أن تخبرني عن سبب تركك للإخوان ... أو بالأحرى فصلك منها ؟ .

قال والأسى يمتزج بابتسامته : جاء لنا أمر من مسئول المنطقة بخصوص انتخابات مجلس شورى الجماعة بوجوب أن يختار الأخ أسماءً معينة بذاتها دون غيرها وكان من ضمن هذه الأسماء الحاج مصطفى مشهور ... والله يا أخي لو تركوا الأمر دون توجيه لاخترت هذه الأسماء ، ولكنني أنا وآخرين

رفضنا تلك الشورى الزائفة وقلنا لبعض : رغم حبنا للحاج مصطفى إلا أننا لن نختاره ، ولن نختار الأسماء التى أعطوها لنا ، ولكن أحد الإخوة سامحه الله أفشى أمرى أنا وعمر التلاوى فتم التحقيق معنا ثم تم وقفنا لمدة عام ... وإذ رفضنا هذا الظلم صدر قرار بفصلنا من الجماعة .

★★★

لم أستطع أن أخلد إلى النوم رغم تلك السهرة التاريخية ، من بعد المغرب إلى ما بعد الفجر وحتى تباشير الصباح ونحن نستدعى ذلك التاريخ القريب للإخوان ، وعندما أويت إلى فراشى تداعت الأفكار وتفاعلت فى فؤادى فاقضت مضجعى ومنعتنى من النوم .. ينبغى أن أسير فى الجماعة وأنا أحمل مصباح ديوجين فيلسوف أثينا الشهير الذى كان يحمل مصباحه فى وضح النهار يبحث به عن الحقيقة ، ينبغى أن أحتفظ بعقلى لا أسلمه لأحد مهما كان قدره ، فلم تصب الإنسانية بآفة كآفة تسليم العقول يعبث بها من يشاء ، لقد أدركت من خلال ذاكرة أسامة الغزاوى أن الجماعة عندما تشعر أنها مهددة بالزوال فإنها تدافع عن نفسها عبر عدة وسائل ، إذ تسعى أولاً إلى وأد أى حركات تجديدية داخلية ومحاربتها بشتى الطرق ، كما أنها تسعى فى ذات الوقت إلى الانكماش والتقوقع على ذاتها كوسيلة من وسائل الدفاع عن النفس بحيث تبقى بمعزل عن البناء الحضارى للمجتمع ... أما طبيعتى فهى ضد العزلة والتقوقع والانعزال .. أنا مع الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ... وما التنظيم إلا وسيلة فإن خاب فى مسعاه فليذهب إلى ذمة التاريخ ولتكن الدعوة إلى أن يشاء الله .

بعد عصر يوم الجمعة الذى جاء ردف تلك السهرة الليلية المدهشة من بدايات عام ١٩٩٢ قررت أن أدون فى مفكرتى كل ما يمر بى فى الجماعة من أحداث ، وأن أدون أيضا تلك الأحداث التى مرت بالجماعة وكنت قريبا منها أو التى مرت بمن سبقونى فى الإخوان ... وكان أول ما كتبته عن أيام الإخوان المسلمين فى نقابة المحامين من بداية التجربة إلى تلك اللحظة التى أمسكت فيها بالقلم ـ ثم ما بعد ذلك مع توالى الأحداث ـ .. تلك الأيام التى كانت ماثلة بين أيدينا والتى كنا نرتع فيها فى أقدم نقابة مهنية ليس فى مصر فحسب ولكن فى العالم العربى كله .. أيام الإخوان فى تلك النقابة العلمانية الليبرالية الصلدة.. ويا لها من أيام .

الفصل الثالث

سفر التكوين

«عندما يتسلق الإنسانُ بدأبٍ وإصرار الجبلَ ليصل إلي القمةِ فإنه سيصل حتماً ولكن ينبغي عليه أن يعلمَ أن الغيوم والسحبَ تحيطُ بالقمة من كل جانب» .

هامش : كتبت هذه السطور فى مفكرتى بدءاً من عام ١٩٩٢، وبعد هذا التاريخ حدثت الكثير من الأحداث والوقائع وتبدلت أحوال البعض ، ولذلك قمت بكتابة إضافات سأجعلها في موقعها المناسب ولكننى سأضعها بين قوسين لتمييزها عن النص الأصلى ، إلا أننى اختصرت الذى دونته فى مفكرتى وتجاوزت أحداثا هامة حتى لا أستدرج القارىء إلى تفريعات ليس هنا مجال ذكرها .

كان ذلك قبل أن أدخل إلى الإخوان أو أنخرط فى تنظيمهم ، لم أكن أعرف - بحسب أننى كنت أنظر إلى جسم الإخوان من الخارج - حقيقة ما يدور داخل التنظيم ، أما الآن فإننى أكاد أقسم أن الأستاذ عمر التلمسانى رحمه الله لم يكن يتصور أنه عندما أطلق شرارة بدء حركة الإخوان المسلمين فى نقابة المحامين أن يؤول الأمر إلى ما وصل إليه الحال فيما بعد .

فى بداية عام ١٩٨٣ حينما أصبح الشتاء فى عنفوانه ، قام الأستاذ عمر التلمسانى مرشد الإخوان آنذاك بدعوة عدد من أبناء الحركة الإسلامية من العاملين بالمحاماة كى يستأنس برأيهم فى شأن وضع حجر الأساس للحركة الإسلامية بعمومها فى نقابة المحامين ، كان من بين الحضور عدد من قيادات الإخوان من غير المحامين وكان من بينهم أيضا بعض شيوخ المحامين الذين انتسبوا للإخوان بشكل أو بآخر.

وبعد أن صلى الجميع الظهر خلف إمامهم وقائد دعوتهم ومرشدهم عمر التلمسانى ، تحلّق الجمع حوله وقد توسطهم فى الحجرة الرئيسية بمقر الدعوة - الإخوان - بالتوفيقية وأخذ الرجل - وهو المحامى الأريب - يستمع إلى الشباب والشيوخ .. يتفرس وجوههم ويبحث فى قلوبهم ويقرأ تصوراتهم الحركية فى الشأن الذى دعاهم إليه ، إلا أنه أعرض بامتعاض عن كل ما استمع إليه إذ كان المتكلمون يتحدثون وكأنهم من أهل الكهف لا يدرون عن واقعهم شيئا .

وعندما انتهى الجميع قام من آخر الصف شاب فى نهاية العقد الثالث من عمره يطلب الكلمة ... وعندما أذن له المرشد تكلم واحتد وشرح كل ما فى

عقله وكانت كلماته تحمل قدرا من اللوم على جيل فشل فى وضع أقدام الحركة الإسلامية فى نقابة المحامين حتى أصبحت هذه النقابة قلعة من قلاع الأيديولوجيات الليبرالية واليسارية التى تقف فى موقع المنافسة مع ما أطلق عليه الباحثون " الإسلام السياسى " . أثار كلام هذا الشاب سخط الكبار وإعجاب الشباب حتى أن المرشد التلمسانى انتهره وطلب منه الجلوس ، إلا أنه عند انصراف الجميع همس المرشد فى أذن الشاب مختار نوح قائلا : مر عليّ فى الغد .

لم تكن هذه اللفتة لتمر بسلام وبين الجالسين الحاج أحمد حسانين والدكتور أحمد الملط والشيخ حسنى عبد الباقى أبناء النظام الخاص الذين استشعروا أن المرشد يسعى قدما نحو اجتذاب شباب الإخوانّ إلى دائرته الخاصة التى تنشد الدعوة ، بعيدا عن عيونهم ورقابتهم ، وإلا ما الداعى أن يهمس فى أذن هذا الشاب وهو يبتسم ابتسامة نافذة ، فأوجسوا فى أنفسهم خيفة وأضمروا فى ضمائرهم شيئا .

(صدرت تعليمات بعد ذلك إلى مسئولى المحافظات بعدم تنفيذ أى أمر يصدر بخصوص مختار نوح إلا بعد الحصول على موافقة من أحد هؤلاء ، إلا أن المرشد التلمسانى كان لهم بالمرصاد ومن بعد استطاع نوح التغلب على تلك المعوقات من خلال صلته الوطيدة بالمستشار مأمون الهضيبى إلى أن تغيرت الأحوال وسبحان من له الدوام) .

فى اليوم التالى كان التلمسانى يستمع من مختار نوح إلى تصور حركى واستراتيجى كامل يسمح للحركة الإسلامية بعمومها ـ وليس الإخوان فحسب ـ بالولوج إلى نقابة المحامين تلك النقابة التى كانت الحلم للحركة الإسلامية ... والأمل للإخوان المسلمين إلا أنها كانت عصية عليهم .

قال نوح للمرشد وهو ينظر تأدبا إلى الأرض : أرى يا فضيلة المرشد أنه ينبغى أن نقوم بتكوين صف واحد فى نقابة المحامين ينضوى تحت رايته كل التيار الإسلامى .. الإخوان وغير الإخوان .. يمتد جغرافيا إلى كل القُطر بحيث يرتبط الجميع برباط عضوى ، كما لا بد أن نقدم عملا إسلاميا واضحا ونعلن عن طموحاتنا وأنفسنا وشعاراتنا بلا مواربة إذ لم نجن من المواربة التى كان السابقون يحرصون عليها إلا الفشل ... ثم مد نوح يده للمرشد ببضع ورقات تحتوى على تصور حركى ومنهجى ثم استطرد : هذه الورقات

تحتوى على تصورى أقدمها لفضيلتكم حتى أحصل على رأيكم وتوجيهكم بشأنها .

مما لاشك فيه أن المرشد المستبصر تنفس الصعداء ثم ربت على كتف نوح وهو يقول له :

"أوافق على هذا التصور ، إلا أننى أطلب منك أن يكون صفك باحثا عن مصالح المحامين قبل غيرهم ولو كان غيرهم هم الإخوان" .

"أنت الآن مسئول عن تنفيذ تصوراتك وأفكارك وسأساعدك ما وسعنى الجهد" .

"إعلم أنه ستقابلك العديد من المشاكل والصعوبات الجمة ، لن تكون الصعوبات أو المشاكل التى أعنيها من المنافسين الذين ينتمون لتوجهات سياسية منافسة فهذه مقدور عليها، ولكن ستقوم عليك الحروب من أبناء جلدتك الفكرية .. أبناء مرجعيتك فاحذر منهم" .

"إذا أردت أن تسلك طريقا فى الحركة ووجدت معارضة من أحد من الإخوان هدفها توقيفك وإحباطك فاضرب الصفح عنهم وقل لمن يعارضك : إنما أفعل ما أمرنى به التلمسانى" .

كان المرشد على يقين من أن مشروعه الفكرى الرامى إلى تحويل الجماعة إلى تيار دافق يسرى فى أوصال المجتمع ويضم كل أبناء الحركة الإسلامية سواء من انضم منهم للتنظيم أو من لم ينضم ،لا فارق بينهما إلا بمقدار الإيمان والعمل سوف يلقى معارضة أكيدة من فريق يسعى بقضه وقضيضه نحو إحكام قبضته على عنق الجماعة ، إذ كان هذا الفريق قد نشأ بعضه فى حضن النظام الخاص وتحت رعاية عبد الرحمن السندى ، وشرب بعضه الآخر من معين سيد قطب وكانوا سدنة معبده الفكرى وأتباعه فى قضية ١٩٦٥ ، من أجل هذا كان المرشد حريصا على تحذير نوح من أولاء بكلمات تحمل تلميحا وتخفى تصريحا أو تبطن أكثر مما تظهر.

★★★

لم ينصرم عام ١٩٨٣حتى جمع مختار نوح حوله من جيله عددا من المحامين الذين يحملون عاطفة دينية مشبوبة... لم يكن منهم من ينتمى إلى الإخوان المسلمين إلا ستة نفر خمسة من المحامين أما السادس فقد كان طالبا فى كلية الحقوق (سيكون بعض هؤلاء صاحب دور مؤثر فى مسار

جماعة الإخوان فى نقابة المحامين فى مستقبل الأيام) ، أما عن هؤلاء الستة فهم جمال تاج الدين (الذى أصبح نقابيا بارزا فيما بعد كما أصبح صاحب مكانة إخوانية إلا أن مكانته ارتبطت - مدا أو جزرا - بمن هم على مقاعد الإدارة الإخوانية العليا ، كما أن شخصيته الصدامية عطلته عن الترقى فى مدارج الإخوان وأوقفت رحلة صعوده حتى حين)، وجمال فايز (الذى اختفى من الأحداث بعد ذلك بسنوات وترك جماعة الإخوان رغم النسب الذى ربطه بأحد كبار الإخوان الأوائل - الراحل محمد المسمارى - والصلة العميقة التى كانت بينه وبين المرشد التلمسانى) ، ومحمد غريب (الذى دخل الإخوان عن طريق بوابة نوح وما لبث أن خط لنفسه طريقه فى الإخوان وتراوحت رحلته الإخوانية ما بين الصعود والركود) ، ومصطفى زهران (الذى كان راقصا فى فرقة رضا للفنون الشعبية وكان من المتوقع أن يكون له الشأن الأكبر فى تلك الفرقة الفنية التليدة وإذا به يغير مساره عندما التقى بنوح حيث ترك الفرقة الفنية ودخل إلى الفرقة الدينية - الإخوان المسلمين - وأصبح بعد ذلك من علامات البداية للإخوان فى نقابة المحامين إلا أن الحال لا يدوم فسرعان ما تراجعت مكانته الإخوانية وتعرض لكثير من المشاكل داخل المحضن الإخوانى حتى أصبح قاب قوسين أو أدنى من ترك الجماعة إلى أن تم تسكينه فى أسرة إخوانية تضم المشكوك فى ولائهم فأصبح على الهامش بعد أن كان من القلب) ، وأحمد ربيع (أحد أوائل من انضم من محافظة الجيزة للإخوان المسلمين وكانت تربطه بالحاج مصطفى مشهور رابطة قوية حيث دخل الإخوان عن طريقه فى نهاية السبعينات ثم انقطع الحبل السرى الذى كان يربطه بالحاج مصطفى بعد أن استوى عوده ... وقد ترقى أحمد داخل الإخوان وأصبح فى فترة من فتراته مسئولا عن نشاط الأشبال فى الإخوان وتمازج أحمد مع نوح وشرب منه وتعلم الكثير على يديه وبعد محنة نوح التى دخل فيها السجن عام ١٩٩٩ ستصيب أحمد لعنة الإخوان بسبب قربه من نوح وسيتم تنحيته من كل مواقعه الإخوانية وسيصبح خالى الوفاض وأثرا بعد عين) .

ثم طالب الحقوق وقتها سيد عبد العزيز الذى كان أحد شباب الإخوان فى منطقة الزيتون وكان مقربا من نوح حيث ظل منافحا عنه وسندا له (إلا أن السفر خارج البلاد للبحث عن الرزق أبعده لسنوات عن الجمع وعندما عاد من

سفره عاد بغير القلب الذى ذهب به) ، ثم انضم إليهم بعد ذلك خالد بدوى الداعية الذى عُرف عنه أنه رقيق الحاشية دمث الخلق بشوش مبتسم يمتلك وهو يقرأ القرآن صوتا خاشعا مؤثرا يهز الأفئدة (وأصبح بعد ذلك من مختار نوح كهارون من موسى عليه السلام ومن بعد صار خالد عضوا شهيرا بمجلس نقابة المحامين وتم حبسه مع نوح فى قضية عبد الحارث مدنى عام ١٩٩٤ ثم فى قضية النقابيين عام ١٩٩٩ وبذلك أصبح رفيقا لمختار فى سجنه كما كان رفيقا له فى العمل النقابى) .

وبهذا العدد بدأ مختار نوح فى تأسيس الصف الإسلامى حيث قام بالطواف فى المحافظات والقرى كى يجمع أنصارا من المحامين يعرض عليهم فكرته وتصوراته الإسلامية والحركية التى كان نبعها هو فكر الإخوان ... وبدأ العدد فى التكاثر من حوله رغم المعوقات العديدة التى وضعها أمامه من أشار عليهم التلمسانى .

كانت المشاكل تترى ، والبيروقراطية تقف حائلا دون انطلاقات هذا الشاب ولكأنما الذين يعوقونه ينتمون إلى جماعة أخرى وتنظيم آخر ... ولم يكن نوح يستطيع فى كثير من الأحايين التغلب على تلك البيروقراطية إلا بالاتصال بالمرشد التلمسانى حتى يأمر بفك تلك الطلاسم التنظيمية .

ورغم كل ذلك فقد كانت البداية برّاقة لامعة تخطف الأبصار، وقد ساهم فى الزخم الذى صاحب البداية تلك الحالة المصرية الفريدة التى لم تتكرر كثيرا فقد كانت مصر ـ المتدينة أصلا ـ آنذاك فى حالة شعورية فريدة من التدين والإقبال على الحركة الإسلامية التى اكتسبت ثقة الشارع بسبب حكمة وحصافة التلمسانى ، وبسبب العلماء والدعاة الذين انتشروا قبلها فى مصر من خلال مساجدها ومنابرها وجامعاتها يصنعون مساحة تأثير غير مسبوقة ويمهدون الطريق لمن يجنى الثمار.

لكل هذا ولغيره تكوّن فى نقابة المحامين صف من المحامين يحملون خليطا فكريا وحركيا متناثرا إلا أنه تجمعهم مرجعية واحدة وعاطفة دينية مشبوبة ، انتمى معظمهم إلى الإخوان المسلمين عن طريق نوح وظل البعض الآخر بغير انتماء تنظيمى .

كانت المشكلة الأساسية التى واجهت نوح ومجموعته هى تحت أى غطاء نقابى يعملون ؟ إذ لم يكن التلمسانى يحبذ لهم العمل فى النقابة تحت راية

الإخوان بشكل فج ، وإن لم يمانع بطبيعة الحال من أن تكون الراية التى يلتف من حولها المحامون هى راية إسلامية ذات شعارات إسلامية واضحة ، كما أنهم يذكرون تلك الليلة التى اجتمعوا فيها مع القطب الإخوانى الشهير الأستاذ فريد عبد الخالق فى بيته حينها قال لهم بكلمات واضحة رقراقة : ينبغى وأنتم تمارسون عملكم النقابى أن تقطعوا الحبل السُرى بينكم وبين الإخوان ، بل وينبغى أن تنتهى فترة فطامكم الإخوانى .. أنتم من المحامين وينبغى أن يكون عملكم لمصلحة المحامين قبل أى مصلحة أخرى ... ولا ريب أن مثل هذه الأفكار قد ألقت بالأستاذ فريد عبد الخالق بعيدا عن المواقع القيادية فى الجماعة رغم تاريخه الذى يضرب بجذوره فى تربة الإخوان وصلته القوية بالمرشد التلمسانى ... وعلى نفس النهج نصحهم المفكر الإسلامى والقانونى العملاق الدكتور توفيق الشاوى (رحمه الله) الذى كان قد أبحر بعيدا عن التنظيم منذ أمد.

(ولعل لجوء نوح إلى أولاء الرجال يطلب منهم المشورة جعل فريق النظام الخاص يضع تحت اسمه ورسمه خطا أحمرا ظل يصاحبه كظله فيما بعد) .

تعددت مصادر الشورى وتنوعت وكان من رأى الأستاذ محمد هلال (وهو من كبار المحامين بالإخوان وأحد أكبر أعضاء مكتب الإرشاد سنا وتولى موقع المرشد المؤقت عقب وفاة المُرشد السابق مأمون الهضيبي وسيكون له دور مهم فى الأحداث بالنسبة لى فيما بعد) أن يكون العمل تحت مظلة لجنة أو رابطة يطلقون عليها الصوت الإخوانى أو ما شابه .. مما جعلهم يغوصون فى حيرتهم .. تحت أى مظلة فى نقابة المحامين نعمل ؟.. هل تحت مظلة لجنة الحريات ، أم تحت مظلة لجنة الشئون العربية أم أم أم ؟ ولكن سرعان ما سينطلق ركب الإخوان إلى لجنة الشريعة الإسلامية التى ستصبح الناطق الرسمى للإخوان فى النقابة ... إلا أن الوصول إلى هذه اللجنة كان أشبه بالوصول إلى قمة إفرست ، كنا نتصور لجنة الشريعة لقمة سائغة ولكن تصورنا هذا كان مستغرقا فى السذاجة ... فقد كانت المفاجآت تنتظرنا .

★★★

كان أحمد الخواجة هو أول من أدرك فى نقابة المحامين ملكات مختار نوح وقدراته الانتخابية التى من الممكن أن تفسح المجال للإخوان المسلمين فى نقابة تتأبى على السيطرة الحزبية. فقبيل انتخابات المجلس التى أجريت فى

مايو من عام ١٩٨٥ - عام المواجهة - توفى الأستاذ محمد المسمارى المحامى وعضو مجلس نقابة المحامين المنصرم والذى ينتسب بصلة تماس أو انتساب - لجماعة الإخوان المسلمين فضلا عن أنه كان من المقربين للنقيب الداهية أحمد الخواجة وللمرشد التلمسانى فى ذات الآن - وفى سرادق العزاء المهيب تقابل أحمد الخواجة مع مختار نوح وانتحى به جانبا ثم بدأ يُسر فى أذنه كلمات: أنت شاب رائع وسيكون لك مستقبل إلا أنك تحفر نهايتك ونهاية جماعتك فى النقابة بنفسك كان من المفترض أن تتعلم من المرحوم المسمارى أهمية عدم رفع شعاراتكم الدينية.

قال له نوح وهو يمتطى جواد الثقة : المسمارى رحمه الله أستاذى ولكن لكل مرحلة متطلباتها وقد آن أن نُعبِّر عن أنفسنا وعن فكرنا ونحن نثق فى ضمير المحامين .

فبادره الخواجة : اعلم يا مختار يا ابنى أن الشعار الذى رفعته والذى تقولون فيه نعم نريدها إسلامية من شأنه أن يسقطك فى الانتخابات ، فنقابة المحامين نقابة علمانية وسوف يقف ضدك الناصريون والشيوعيون والمسيحيون والوفديون .. سيقف ضدك الجميع وسوف يكون هذا كفيلا بإسقاطك أنت وجماعتك .

إلا أن نوح أجابه بثقة وهو يتسربل بعباءة الجدية : أعلم هذا يا معالى النقيب ولكن لا تقلق فسوف أنجح نجاحا غير مسبوق

فقاطعه الخواجة فى هدوء امتزج بقليل الحدّة : السنة الماضية يا مختار لم يستطع الإخوان إعلان شعارهم فى انتخابات مجلس الشعب بل إنهم تحالفوا مع الوفد ودخلوا البرلمان من خلال معطف غير معطفهم وشعار غير شعارهم ... صدقنى فقد كنت حاضرا للتحالف من أوله لآخره وأنا الذى ذللت الصعاب التى واجهت هذا التحالف ... أنا أحبكم يا بنى وأحبك أنت على وجه الخصوص وأرى فيك شبابى .. ارجع للأستاذ التلمسانى وقل له الخواجة نصحنى بذلك وهو سيفهم قصدى .. فقد كان معى منذ لحظات يقدم واجب العزاء ، ويا ليتك حضرت مبكرا ولحقت به حتى يكون كلامى هذا على مرمى حجر من أذنه .

قال مختار وهو يستمر فى ثقته : هذا أمر محسوم يا معالى النقيب ولا مجال للجدال فيه .

وكأنما لم ييأس .. وبحميمية تميز بها الخواجة أمسك بيد نوح واقترب من أذنه هامسا وكأنه سيدلي له بسر خطير : مصر يا مختار لا تتحمل فى هذه الأيام شعارات دينية ... مصر ما صدقت أنها خرجت من دوامة التطرف ..... أرجوكم لا تعيدوا هذه الأيام....لو لم تنتبهوا فسيحدث فى المستقبل القريب صدام لا محالة بينكم وبين النظام .. بل ستصطدمون بمؤسسات الدولة المدنية كلها ... وإذا فعل الإخوان فعلتك وأصروا على المواجهة والمغالبة بالشعار والأسلوب ستكون هذه هى بداية النهاية للإخوان ككل .. الأمر يحتاج إلى فطنة لا إلى شجاعة .

لم يأخذ أحد بنصيحة الخواجة فقد اعتبرناها مناورة - وقد تكون كذلك - إلا أننا لم نفكر حتى فى طرحها للنقاش ، ولكننا فقط تناقلنا خبرها بزهو وانتشاء ، فالخواجة بجلالة قدره يخشانا ويحاول أن يستقطبنا وكأننا المجهول المخيف ، وقد زاد من شعورنا بالفخر تلك النتيجة التى أسفرت عنها الانتخابات .... فعلى غير ما توقعت القوى السياسية فى مصر فاز مختار نوح بالمقعد الأول للشباب مزاحما الكبار فى عدد الأصوات ومتفوقا بثلاثة أضعاف تقريبا على سامح عاشور الابن الروحى لأحمد الخواجة الذى فاز بالمقعد الثانى ، وكان هذا الفوز هو قمة المفاجآت التى أذهلت أحمد الخواجة ومجلسه ، ولكن يبدو أن الخواجة لم يستسلم ... فقد دبر أمرا وأجرى اتفاقا مع مجلسه سيكون هو الضربة الأولى للإخوان .

★★★

كان نوح قد جاب المحافظات والمراكز فى جولاته الانتخابية وقد ساعدته هذه الجولات على اكتساب مزيد من الأنصار بل كانت هذه الجولات هى العامل الرئيسى فى تكوين الصف الإخوانى الكبير فى نقابة المحامين فقد دخل إلى الإخوان من خلالها العشرات من المحامين واقترب من الإخوان بضع مئات يتحلقون حول نوح الذى ظهر كقائد منتصر استطاع فتح تلك النقابة الليبرالية التى كانت ذات يوم بعيدة المنال عن الحلم الإخوانى .

وبدخول مختار نوح صاحب الثوب الإخوانى للمجلس بدأت حقبة جديدة فى نقابة المحامين وظهرت أمام نوح مظلة شرعية يعمل هو ومجموعته تحتها ومن خلالها هى مظلة لجنة الشريعة الإسلامية وهى إحدى لجان العمل النقابى فى نقابة المحامين كان من ضمن أهدافها الرئيسية التى أنشئت من

أجلها تقنين الشريعة الإسلامية وعمل أبحاث شرعية وقانونية لهذا الغرض .

وبعد أن أقمنا الأفراح ابتهاجا بهذا النجاح الذى اعتبرناه أسطورة من الأساطير ، حتى أن النوم خاصم جفوننا أياما من فرط السعادة ـ ولِمَ لا تعترينا الفرحة ؟ وقد أصبح نوح هو الفارس الأول من فرسان الإخوان الذين ولجوا بالتنظيم إلى داخل النقابة كما يلج الجمل فى سم الخياط ـ

أخذ بعضنا يتردد بشكل مستمر على مقر الإخوان المسلمين بالتوفيقية محاولا لفت الأنظار إليه وكأنه يقول لكبار الإخوان : انظروا .. نحن جيل الفتح ... نحن الذين فتحنا نقابة المحامين .

ووقع فى قلوبنا الظن أن النقابة قد حيزت لنا بلجانها ورجالها .. إلا أننا أفقنا من أحلامنا البلهنية عندما بدأ النقيب الخواجة فى تنفيذ الأمر الذى دبره مع أعضاء مجلسه .. فقد بدأ فى دعم سامح عاشور بكل ما يملك من قوة .. فى الوقت الذى أبعد فيه مختار نوح عن كل لجان النقابة بما فيها لجنة الشريعة الإسلامية !! وقتها أدركنا أن قوسنا لم يخرج من كبده بعد وأننا مازلنا فى بداية الطريق ولم تستو شجرتنا على سوقها .

وبدأت المواجهة بين تيار الليبرالية المصرية الذى ضم تحت معطفه كل التيارات السياسية .. والإخوان المسلمين الذين رفعوا شعار نعم نريدها إسلامية ... وشعار من أجل نقابة يمنحها الإسلام صدق الوعود وتعيش بالإسلام ثبات الموقف .. صراع من أجل مساحة تبتغيها جماعة الإخوان ومحاولة عنيدة من القوى الليبرالية بإغلاق الباب أمامهم وإقصائهم .. إلا أن الرياح أتت بما لم تشته السفن .

عودة الشيخ إلي التوفيقية

كانت الصورة توحي بمعركة ... مجلس نقابة يرفض بكامله إعطاء نوح مساحة يمارس من خلالها أنشطته ... يرفض تسليمه لجنة الشريعة الإسلامية ... ونوح يعلن على المحامين كافة أنه هو مقرر ومسئول تلك اللجنة النقابية .. والصراع يحتدم .

وفى وسط هذه الأجواء عاد الحاج مصطفى مشهور من غربته التى قضى فيها خمس سنوات ، كانت حاسته الثاقبة وفراسته الصائبة قد أرشدته إلى أن الرئيس السادات سيقوم بالقبض على النخب من كافة الأطياف السياسية فغادر البلاد قبل اعتقالات سبتمبر الشهيرة عام ١٩٨١، أخذ الحاج مصطفى

يجوب بلاد الله ويتقابل مع خلق الله حيث استضافته المراكز الإسلامية فى أمريكا ولندن وشرع وقتها فى إقامة التنظيم الدولى للإخوان ثم عاد قبل أن يرتد إلينا طرفنا ـ أو يرتد إليه طرفه ـ وكأنه لبث يوما أو بعض يوم ، عاد إلينا بعرش التنظيم الدولى الذى أنشأ بنيانه ـ أو أعاده للوجود ـ وأنشأ لائحته .

عاد عندما وجد أن الجو السياسى فى مصر قد استطاب لأهلها من الإخوان وأمن كل واحد منهم على نفسه وماله ، عاد الرجل من غربته ليجد المرشد التلمسانى حرضاً فى نزعه الأخير ، فأخذ يُقلّب ملفات الإخوان التنظيمية وأوراقها ويبسط نفوذه هنا وهناك ، وكان أن وجد الإخوان قد قطعوا مسافة فى النقابات المهنية وتوطدت أركانهم فى الأطباء والمهندسين وبدأوا يظهرون فى المحامين ، فأوجس فى نفسه خيفة أن يكون المرشد التلمسانى قد جرى بهؤلاء بعيدا عن سطوة التنظيم ، فأسرها فى نفسه ولم يبدها إلا لرجاله العتاة الأقوياء .

وكان لابد أن تجرى المقادير بما قدّره الله فقد مات الأستاذ عمر التلمسانى وأفضى إلى ما قدّم وبكاه من بكاه من الإخوان ومن غير الإخوان ، واستراح لموته من استراح من الإخوان ومن غير الإخوان ، وكأنى سمعت ـ وقتها ـ الأستاذ فريد عبد الخالق الصديق الحميم للمرشد التلمسانى وهو يقول لأحدهم مصطبرا بصوت غلفته رعشة الحزن : إن صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور، وإن جزعت جرت المقادير وأنت مأزور .

وكأنى سمعته أيضا وهو يقول : إن أخشى ما أخشاه على الجماعة أن تقع فى يد من لا يحسن تدبير أمرها فيقذف بها بعيدا عن منهج حسن البنا والتلمسانى .

ولكنى سمعتُ أيضا آخرا وهو يقول لآخر وقد دان لهم موقع المرشد: «والله لنتلقفها كما نتلقف الكرة ولن ندعها تقع من بين أيدينا أبدا».

وأصبح الأستاذ حامد أبو النصر هو المرشد الرابع للإخوان المسلمين .

فى أحد الأيام من شتاء ١٩٨٧ انتحى الحاج مصطفى مشهور ـ بعد أن أصبح نائبا للمرشد أبو النصر ـ بمختار نوح وأحمد ربيع فى حجرته المواجهة لصالة الاستقبال بمقر الإخوان بالتوفيقية (تلك الحجرة العتيقة التى شهدت أحداثا جمة وكان المستشار مأمون الهضيبى يزامله فيها أحيانا) ... كانت

الحجرة بسيطة المحتويات وكان الحاج مصطفى بصورته المعتادة التى لم تغيرها الأحداث ولحيته الخفيفة غير المنتظمة وطاقية رأسه البيضاء ... يرتدى كعادته - صيفا أو شتاءً - حُلة صيفية رمادية اللون إلا أنه لبرودة الجو كان يرتدى تحتها رداءً من الصوف يقيه قر الشتاء ويحميه من نزلات الكحة الصدرية .

تنحنح الحاج مصطفى وقال وكأنه ينصح زائريه بصيغة أبوية آمرة: ينبغى أن تكون حركتكم فى نقابة المحامين خالصة للجماعة وحدها دون غيرها .

وقبل أن يرد عليه نوح أو يعقب استطرد الحاج مصطفى : ليس الأمر مجرد كلام ولكن أين العمل للدعوة ؟ أين المقارىء التى ينبغى أن تكون هى حجر الأساس ؟ أين المعسكرات الإسلامية ؟ هذه هى النبتة التى منها ستنطلق الدعوة ... ومن خلالها سيدخل إلى الإخوان الآلاف من المحامين وسيكون الفتح إن شاء الله .

قاطعه نوح وكأنه يستفهم : ولكن أين دور العمل النقابى المتمثل فى الارتقاء بالمهنة وتقديم الخدمات للمحامين وإنشاء المشروعات النقابية ؟

قال مصطفى مشهور وهو يخترق وجه نوح بنظراته النافذة : يستطيع أى واحد تقديم مثل هذه الأعمال النقابية لكن لن يستطيع غيركم تقديم العمل الإسلامى ... أنتم رسل الدعوة فى النقابة ، ولذلك فليضع كل واحد منكم أمامه هذا الشعار لا تغادروه أبدا ... فى سبيل الله قمنا نبتغى رفع اللواء.. لا لحزب قد عملنا نحن للدين فداء... فليدم للدين مجده أو ترق فيه الدماء .

أكاد أقسم أن مختار نوح تأثر بهذه الأفكار وقتها ، فقد أيقن أن فتح نقابة المحامين لن يكون إلا من خلال العمل الدعوى ولن تكون الدعوة إلا من خلال الإخوان وحدهم دون غيرهم ولن يكون الإخوان إلا بتنظيم محكم .. ولن يقبل الإخوان وجود أى حركة إسلامية منافسة مهما كان قدرها .. وعلى غير المتوقع ظهرت فى سماء نقابة المحامين حركة إسلامية منافسة أثارت قلق الإخوان .

(ولكن التجربة أعطت لنوح بعد ذلك بُعدا فكريا مختلفا ، بُعدا واسع الأفق عظيم الامتداد ، ولكن لم يمهله أحد فقد تعرض نوح فى مستقبل الأيام بسبب أفكاره لإقصاء وتجميد) .

مناظرة بين الإخوة الأعداء

ذات صبح لأحد أيام عام ١٩٨٨ انتشرت في حجرات المحامين بالمحاكم إعلانات عن تأسيس رابطة أطلقت على نفسها جماعة المحامين الإسلاميين ، كان أفراد هذه الرابطة ممن ينتمون إلى تجمعات إسلامية مختلفة مثل الجهاد والجماعة الإسلامية ، وكان بعضهم جذوره سلفية إلا أنهم كلهم يقفون موقف الاختلاف مع الإخوان المسلمين ، وبدأت أنشطة تلك الرابطة تنهض وتظهر بصورة توحي وكأنها المنافس الإسلامي للجنة الشريعة الإسلامية ... أو على وجه الدقة للإخوان المسلمين .. وظهر على رأس هذه الرابطة منتصر الزيات الذي كان قد بدأ خطواته الأولى في المحاماة بعد خروجه من السجن ، ومحمود عبد الشافي وهو شخصية إسلامية معروفة بين المحامين ولها حضورها ، وقمر موسى الذي كان أميرا للجماعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة في السبعينات ... وغيرهم .

أثارت هذه الرابطة قلق الإخوان وخوفهم ... فأولئك المحامون ينتمون في الأصل إلى تجمعات حركية انتهجت العنف ودخل قادتهم السجون بعد اغتيال السادات وقد تصم تلك الرابطة بتاريخها المعروف كل التجمعات الإسلامية في النقابة - بما فيها الإخوان - بالعنف الذي كان قد استعدى ضده نفسية المصريين .. وغير هذا فإن تلك الرابطة بدت وفقا لحركة رجالها وحضور بعضهم كمنافس صلب لجماعة الإخوان بالنقابة ، فبعد أن كان الإخوان هم وحدهم أصحاب هذه البضاعة ورجالها في نقابة المحامين، إذا ببعضهم يظهر ويقول لهم ونحن أيضا نملك مثل بضاعتكم وسنرفع مثل شعاراتكم ... لا تثريب علينا إن فعلنا ذلك ، فلستم الوكلاء الحصريين للإسلام ، ولن تكونوا .

ولذلك بدأت الحرب الخفية المستترة بين الأشقاء ، وكانت الحرب تستعر نارها علنا في بعض الأحيان أمام الغادي والرائح من عامة المحامين .. إلا أن الغلبة كانت دائما لفريق الإخوان ، فقد كان فريق منتصر الزيات وقمر موسى يفتقد الحنكة السياسية والقدرة على إدارة المعارك إذ كان كل همهم في المحاكم وبين المحامين انتقاد جماعة الإخوان والحط من قدرهم وتسفيه أحلامهم ، ومن ناحية أخرى كان مختار نوح قد قطع شوطا كبيرا في دعم حركته وتجنيد الأنصار لجماعته في كل المحافظات فلم تُجْد انتقادات المحامين الإسلاميين ولم تفت في عضد الإخوان الذين ردوا على الهجوم

بهجوم وشككوا في نوايا المحامين الإسلاميين وأثاروا الشبهات حولهم .

وعندما اشتد أوار الصراع الإسلامي واحتدمت المنافسة بدأ الوسطاء الطيبون من أصحاب النوايا الحسنة فى التدخل للتوفيق بينهما ، فتم تحديد موعد للقاء قد يسفر عن مصالحة وقد ينتهي بقطيعة .

كان شتاء عام ١٩٨٨ قد حمل متاعه واستعد للرحيل وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وقبل أن يهل الربيع استعد مقر جماعة الإخوان بشارع جول جمال بمنطقة الألف مسكن القابعة على أطراف شرق القاهرة لاستقبال ضيوف غير عاديين ، كان عم خليل فرّاش المقر قد جهّز القرمشات وشرائح متنوعة من المخبوزات وأدوات الشاى واليانسون والقرفة ثم غادر المقر تنفيذا للتعليمات التى تلقاها ، وقبيل صلاة العشاء بلحظات بدأ بعض أفراد يتوافدون على المقر ، كان مختار نوح ومعه خالد بدوى وجمال تاج أول الحاضرين ، ودخلت إلى المقر عقبهم مباشرة ومعى عبد السلام دياب (أحد المقربين من الإخوان وقتها) وسيد عبد العزيز فوجدناهم قد أقاموا صلاة العشاء فدخلنا فى الجماعة ومن خلفنا اصطف عدد آخر كان قد دخل بعدنا ، وبعد التسليم من الصلاة نظرنا خلفنا لنرى منتصر الزيات ومحمود عبد الشافي وقمر موسى وقد دخلوا معنا فى صلاة الجماعة ومعهم بعض نفر من المحامين المنتمين لجماعتهم .

وبعد عبارات الترحيب والمودة الظاهرة التي كانت تخفى ترقباً بدأ مختار نوح الحديث قائلا : إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا ... اليوم نجتمع لنضع حدا فاصلا للانقسام الذى لا ينبغى أن يكون أبدا بيننا ... وقبل أن يكمل حديثه قاطعه خالد بدوى وهو يقطب جبينه : لو سمحت يا أخ مختار أنا معترض على ما تقول .

فقال مختار مندهشا : ولكنى لم أقل شيئا بعد .

بادره خالد : أنت قلت " انقسام بيننا " وليس بيننا انقسام فالإخوة من الجماعة الإسلامية من أحب الناس إلي قلوبنا ، وأنا أشهد الله سبحانه وتعالى وأشهد الحاضرين أن أخى منتصر وأخى محمود وأخى قمر والإخوة

كلهم هم أحب الناس إلى قلبى .. ثم أطرق خالد إلى الأرض وقال وهو يكاد يهمس : ألم يقل الله سبحانه وتعالى (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ)

ابتسم مختار وهو يقول : صدقت يا أخ خالد ... ثم استدار للإخوة الحاضرين قائلا وكأنه يشرح لهم : أخى خالد دائما ما يذكرنا بالله .. ثم استطرد : نعم .. لا يستطيع أحد أن ينكر أن الحب فى الله جمعنا وآخى بيننا ولكننى أتحدث عن اختلاف العقول والأفهام وليس عن خلاف القلوب والأرواح .... أكمل مختار نوح حديثه : أنا أدعوكم للانضمام إلى لجنة الشريعة الإسلامية ... لو انضممتم إلينا سيشكل جمعنا قوة لا يستهان بها .

وهنا قال محمود عبد الشافى : يا أخ مختار .. يا أخ خالد .: أنا معكم فيما تقولون .. لو أصبحنا كيانا واحدا لأصبحنا قوة لا يستهان بها .. ولكن لماذا لا تنضمون أنتم لنا ؟

وقبل أن يرد مختار نوح تدخل منتصر الزيات قائلا : نحن واحد يا أخ مختار وأنت صاحب فضل علينا فلا ننسى دفاعك عنا وعن إخواننا فى قضايا الجهاد والجماعة الإسلامية ومرافعاتك التى تعلمنا منها الكثير ... لكن مسألة انضمامنا لكم مسألة فيها نظر فأنتم تتبعون الإخوان ولكم قيادات إخوانية ومرشد وتنظيم .. جميعهم على رأسنا من فوق ولكن نحن لا نتبعهم .. فإذا صدرت أوامر لكم منهم فأنتم ستلتزمون بها حتما .. ولكننا قد نرى عكس هذه الأوامر فلا نتبعها وهنا سنتشرذم وسنختلف ... ولذلك فالأولى أن تنضموا أنتم لنا وسنعطى لك يا مختار القيادة لو أردت.

فرد مختار وكأنه يتعجب : ولكن ما عندنا عندكم .. فأنتم لكم قيادات من غير المحامين

وهنا تدخل قمر موسى منفعلا : لا يا أخ مختار هذا ليس صحيحا .. لا يوجد لنا قيادات من خارجنا لا داعى للمغالطة .

وقبل أن يحتدم الجدل دخل سيد عبد العزيز وهو يحمل الشاى والقرمشات وشرائح الخبز المتنوعة وقال بطريقته التى يختلط فيها الجد بالهزل : «صلى على النبى أنت وهو وهو أحضرت لكم طعاما لم تروه فى حياتكم من باب اطعم الفم تستحى العين وصلوا على النبى» .

ضحك الجميع وانشغلوا بالشاى ... وبعد أن رشف خالد بدوى رشفة من

كوبه قال موجها كلامه لمنتصر الزيات : على فكرة يا أخ منتصر كنت أتمنى أن تكون إماما فى صلاة العشاء اليوم ولكنك حضرت متأخرا بعد أن أقمنا الصلاة .

فقال سيد عبد العزيز ضاحكا : بسيطة يا عم خالد نصلى العشاء مرة أخرى .. ها .. عندكم مانع أرفع الأذان والإقامة ... ضحك منتصر الزيات ومحمود عبد الشافي من تعقيب سيد ، ثم قال منتصر موجها الحديث لخالد بدوى : يا مولانا لقد استمتعنا بصوتك الشجى وتلاوتك المؤثرة التى أبكتنا والله أتمنى أن أصلى وراءك العمر كله .

فقال خالد وكأنه يستدرجه : هل كان من الممكن يا أخى الحبيب أن تدخل فتجدنا فى صلاة الجماعة فتتركنا أنت ومن معك وتقيموا صلاة جماعة مستقلة وهناك جماعة قائمة ؟

فأشار منتصر لقمر موسى ومحمود عبد الشافي وقال : يا عم خالد أنا ليس لى فى الفقه عندك قمر موسى له صولات فقهية .

وهنا قال قمر موسى : ماذا تقصد يا أخ خالد ؟

حينئذ أوشكتُ على التدخل فى الحوار إلا أننى أحجمتُ وفضلتُ التريث ، فالصورة التى كانت تخط ملامحها أمامى هى صورة جديرة بالتأمل والفحص والتنقيب ، لا المداخلة والتعقيب ، فها هم أبناء الحركة الإسلامية يجتمعون وقد غلفهم الخلاف يبحثون أيهم يجلس فى موضع الرئاسة ، وأيهم يكون صاحب الاسم والشعار ، ولكأنما كل حزب منهم بما لديهم فرحون ، لا يقبل أحدهم أن يتنازل من أجل فكرته !! وكيف يتنازل والتنظيم عندنا جميعنا مقدّم على الفكرة !! . شردت بأفكارى بعيدا عن الجلسة ثم انتبهت على قول خالد بدوى وهو يُفصح عن غرضه من السؤال : الحقيقة نحن وأنتم نتعبد لله بهذا العمل ونحن جماعة بدأنا هذا العمل التعبدى قبلكم لذلك فمن الواجب أن تنضموا لجماعتنا لأنه لا يجوز شرعا إقامة جماعة وهناك جماعة قائمة .

فبادره محمود عبد الشافى قائلا : هذا قياس مع الفارق يا مولانا ... فتدخل قمر موسى قائلا بحدة : بل هو قياس فاسد ... وإذا كان قياسك صحيحا فإن جماعة الإخوان يكون وجودها مخالفا للشرع لأن الجمعية الشرعية بدأت قبلها وأنصار السنة بدأت قبلها أيضا .... وقبل أن يستكمل كلامه نظر فوجد عبد السلام دياب يشعل سيجارة ، وكان دياب يدخن

بشراهة ولم تمنعه صلته بالإخوان من التوقف عن التدخين .وعندما أشعل سيجارته استنكرها قمر موسى وقال بصوت حازم ولهجة توحى بأنه يتهم الإخوان بالترخص فيما لا يجوز الترخص فيه : لو سمحتم من أراد أن يشرب سجائر فليشربها خارج هذه الحجرة فهى حرام" حرام .. وأنا لا أطيقها فضلا عن أن محمود عبد الشافي عنده حساسية بالصدر .

بهت عبد السلام دياب من كلمات قمر موسى وبان الإحراج الممتزج بالغضب على محياه وكادت الجلسة أن تنقلب لمعركة كلامية فقد خرج فريق المحامين الإسلاميين بها - ومعهم بعضنا - من سياق الفكرة والتنظيم والأولويات وجاسوا حول الدخان وتساهل الإخوان بصدده وشرب الكثير من الإخوان له بما فيهم التلمسانى - رحمه الله - ، وانتهت المناوشات بأن غادر دياب الحجرة مُغضبا فلم أرد تركه وحده بالخارج فخرجت معه وخرج معى سيد عبد العزيز وبعد دقائق انضم إلينا جمال تاج .. وأخذنا فى الخارج نتجاذب أطراف الحديث نداعب بها عبد السلام ونتضاحك سويا من حكايات وقفشات سيد عبد العزيز الذى كنا نطلق عليه "سيد عبد العزيز صاحب الفقه اللذيذ" .

استمرت الجلسة بالداخل لأكثر من ساعة ثم فوجئنا بفريق الجماعة الإسلامية يخرجون وقد ارتسمت على وجوههم علامات الغضب وانصرفوا لا يلوون على شيء بعد أن ألقوا السلام بعبارات سريعة مقتضبة عابسة فعلمنا أن اللقاء قد فشل وأن الانقسام هو قدر التجمعات الإسلامية .

وبعد هذا اللقاء بعام تقريبا جرت وقائع اتحاد غريب الشأن بين هذين الفصيلين المختلفين ... اتحاد واتفاق لم يحدث بعد ذلك أبدا .

الزلزال

آفة القديم - من جيل الأساتذة - أنه لا يتواصل مع الجديد ، وآفة الجديد - من جيل التلاميذ - أنه منبت الصلة عن القديم ، فلا هذا أعطى لذاك ، ولا ذاك أخذ من هذا .. ولكن أستاذية النقيب الخواجة كانت تختلف عن غيرها .. فهى أستاذية من يريد أن يمتد عبر الزمن ، ويخلد فى التاريخ ، والإنسان يمتد بعلمه أو بعمله أو بتلاميذه ، وقد امتد أبو حنيفة عبر الزمن بعلمه وفقهه وتلاميذه ، أما الليث بن سعد فقد انقطع رغم علمه وفقهه لأن تلاميذه لم يعتنوا بنقل علمه ، والذى يؤثر عن الخواجة أنه كان مدرسة تصنع كل يوم

زعيما سياسيا أو نقابيا فارها أو محاميا حاذقا ، كان هذا دأبه وديدنه وعلى امتداد عمره أخرجت مدرسته العشرات الذين أصبحوا بعد هذا أساتذة إلا أنهم لم ينهجوا منهج أستاذهم واقتصروا فقط على صناعة أنفسهم .

ورغم أستاذية الخواجة وانتماء تلاميذه له إلا أن هذه الأستاذية لم تكن له وجاء من الخلافات التى لم تشهد نقابة المحامين مثيلا لها .. فقد اشتد الصراع بين رجال حزب الوفد فى مجلس النقابة ،حيث وقف البعض فى جانب الخواجة وهو يمارس سطوته النقابية تجاه الفريق الذى اختلف معه ، ووقف البعض الآخر فى جانب الفريق المختلف ... ومع تتابع الأحداث استطاع أحمد الخواجة بعقليته التكتيكية اجتذاب معظم أعضاء المجلس لصفه بمن فيهم الشاب الحركى الناصرى سامح عاشور ، إلا أن مختار نوح الإخوانى مكث غير بعيد يترقب الأحداث ويراقب الموقف دون أن ينحاز لطرف على حساب الطرف الآخر إذ أدرك أن الانحياز لأى من الطرفين فيه خسارة لا محالة .

وعلى حين غرة من فريق الخواجة استطاع الفريق المنافس أن يعقد جمعية عمومية سحبت الثقة من المجلس والنقيب ، ومن الغريب أن الخواجة لم يعر هذه الجمعية اهتماما رغم خطورتها !!.

وما إن بدأ فصل الربيع من عام ١٩٨٩ يخط خطوطه الأولى ويبسط نفوذه على الكرة الأرضية ، حتى أعلن أحمد الخواجة قراره بفتح باب الترشيح لدورة جديدة لمجلس النقابة قد تكون - فى ظنه - دورة القضاء على المشاكل وأصحابها .

ثم كانت المفاجأة .... كان عدد من المحامين أعضاء جماعة المحامين الإسلاميين قد قدّموا أوراق ترشيحهم فى هذه الانتخابات ، وعندما تسارعت الأحداث إذا بوفد منهم يتجه صوب مكتب مختار نوح بحلمية الزيتون يطلبون منه النصيحة فى شأن الانسحاب من الانتخابات أو الاستمرار فيها !! فكان للحاسة الانتخابية لمختار نوح الكلمة الفاصلة فى هذا الشأن إذ قادته إلى تغليب قرار الانسحاب من هذه الانتخابات هو والمحامون الإسلاميون لشبهة البطلان التى أحاطتها بسبب سحب الثقة الذى حدث لهذا المجلس .

وكان هذا هو العمل الوحيد الذى اتفق فيه الصديقان اللدودان .. الإخوان والجماعة الإسلامية .

وأجريت الانتخابات بالفعل فى منتصف العام وفيها نجح الخواجة كنقيب ونجح الألفة سامح عاشور كعضو فى انتخابات شهد الجميع بالتزوير الفادح الذى تم فيها .

وبعد ثلاث سنوات عجاف غاب فيها الإخوان عن مجلس نقابة المحامين كتبت صحيفة هيرالد تريبيون عنوانا رئيسيا " زلزال الإخوان يصيب مصر ".

★★★

«هذا الولد قفزاته واسعة ويبدو أنه فخور بنجوميته وزعامته ويجب أن يتم تحجيمه " كانت هذه هى كلمات الأستاذ محمد هلال عضو مكتب الإرشاد (وأحد أكبر الإخوان سنا فى الوقت الحالى " توفى الأستاذ هلال فيما بعد)»، أما الولد الذى كان يقصده فهو مختار نوح .

كان عام ١٩٩١ يوشك على الرحيل ، وكان بعض من قيادات الإخوان قد بدأوا فى تضييق الخناق على نوح وتكبيل حركته ، وظهر هذا التكبيل والتلجيم عندما سعى الحاج مصطفى مشهور ، والدكتور محمود عزت (عضو مكتب الإرشاد ومن تلاميذ سيد قطب وكهنة معبد النظام الخاص وأحد أخطر قيادات الإخوان حاليا) والدكتور محمد حبيب (نائب المرشد فى الوقت الحالى وهو المرشح الأول ليكون المرشد القادم وكان له الدور الأكبر مع آخرين فى أحداث مذهلة حدثت فيما بعد) والأستاذ محمد هلال إلى استصدار قرار من مكتب الإرشاد يتضمن تشكيل لجنة برئاسة "محام مجهول من جيل كبار الإخوان اسمه محمد كمال كان يعمل فى السابق محاميا بأحد المكاتب بدولة الكويت ليكون مسئولا عن نشاط الإخوان فى نقابة المحامين ورئيسا لهذه اللجنة التى كان من المقدر لها أن تدير هذا النشاط وتُصرِّف أموره ، وصدر القرار بالفعل إلا أنهم جعلوا من نوح أحد أعضاء هذه اللجنة .. كان الكل يعلم أن الأستاذ محمد كمال لا خبرة له على الإطلاق فى أى أمر يخص نقابة المحامين ولا حتى المحاماة فى مصر ، كان الرجل لا يعرف السباحة ولكنهم ألقوا به فى بحر لجى إلا أنهم حذروه من الانسياق لمختار نوح أو الاستجابة لأفكاره ، بيد أن هبوب ريح انتخابات ١٩٩٢ جعلت محمد كمال رحمه الله يسند ـ تحت إشرافه ـ أمور الانتخابات لهذا الشاب الذى حير خصومه ونال لأسباب تنظيمية نقمة نفر من قياداته

فكان بين شقى الرحى ... وليس من شك أن الباحث فى شئون جماعة الإخوان سيدرك دون مشقة فى البحث والتنقيب أنه بعد رحيل التلمسانى بدأت الخطوب تتهادى على مهل على نوح .

★★★

قبل فتح باب الترشيح لانتخابات نقابة المحامين والتى تمت فى سبتمبر ١٩٩٢انعقد اجتماع هام لقيادات الإخوان المسلمين على أعلى مستوى فى مدينة الإسكندرية وقد ضم هذا الاجتماع قيادات قسم المهنيين للنظر فى أمر هذه الانتخابات ، وفى هذا الاجتماع العاصف اقترح مختار نوح أن يخوض الإخوان الانتخابات بقائمة لا يزيد عدد أفرادها على ستة أفراد لا غير وكانت حجته فى ذلك أن نقابة المحامين قلعة من قلاع الليبرالية فى مصر تختلف فى تكوينها الفكرى وجذورها التاريخية عن نقابتى الأطباء والمهندسين ، وأن خوض الانتخابات بقائمة متخمة بالإخوان من شأنه أن يهدم المعبد على رؤوس الجميع .. إلا أن الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح المشرف وقتها على قسم المهنيين بالإخوان ومعه المهندس أبو العلا ماضى رفضا هذا الرأى وأصرا على أن الفرصة مواتية لتحقيق نجاح ضخم فى نقابة أغلقت أبوابها زمنا فى وجه الإخوان المسلمين .

أما الأسماء التى طرحتها قيادات الإخوان لكى تترشح فى نقابة المحامين ممثلة لهذه الحركة الإسلامية فقد كانت غريبة عجيبة ، أولها أحمد سيف الإسلام حسن البنا الذى كان يحظى بتأييد مطلق من كل من الحاج أحمد حسنين رحمه الله والأستاذ محمد هلال ، ورغم أن سيف الإسلام لم يكن يعمل بالمحاماة وكان يمارس التجارة وكل مؤهلاته أنه ابن مؤسس الجماعة ، إلا أن ترشيحه فى نقابة المحامين كان أمرا حتميا عند البعض حيث أن هذا الرجل كان كثيرا ما يسبب مشاكل جمة لقيادات الإخوان فارادوا أن يبعدوه عن أى موقع قيادى أو تنظيمى فى الجماعة فادخلوه إلى نقابة المحامين ليامنوا جانبه بعد أن أبعدوه عن عضوية مكتب الإرشاد ... وقد كان الترشيح لعضوية مجلس نقابة المحامين وسيلة لاسترضائه !!.

أما الثانى فقد كان مؤيدا من قسم المهنيين وهو محمد طوسون (الذى كان لا يعمل أيضا بشكل حقيقى فى المحاماة حيث كان يدير مع شقيقه معرضا للسيارات فى مدينة المنيا .. إلا أنه كان فى السابق ضابط مباحث فى

أحد مراكز المنيا حتى تم فصله من عمله وحبسه عشرة أشهر تقريبا من منتصف عام ١٩٨٢ إلى قبيل منتصف عام ١٩٨٣ وكان ذلك بسبب علاقته بالجماعة الإسلامية وبعد خروجه من السجن تنقل بين أكثر من تنظيم إسلامي حتى انتظم في سلك الإخوان في غضون عام ١٩٨٦ ، ولأنه ينتمي إلى عائلة كبيرة في المنيا فقد دفعه الإخوان لانتخابات مجلس الشعب عام ١٩٨٧فأصبح عضوا بالبرلمان ثم تم دفعه إلى انتخابات مجلس نقابة المحامين لكي يكون اللجام الذي يكبح جماح نوح إذا ما اندفع بعيدا عن توجهات التنظيم وسيظهر لطوسون شأن فيما بعد).

وهكذا توالت الأسماء .. (والعجيب أن هذه الأسماء، تم طرحها على اجتماع للجمعية العمومية لمحامي الإخوان في اجتماع لاحق بمقر الإخوان بشارع جول جمال بمنطقة الألف مسكن بالقاهرة إلا أنها لم تحظ بأي تأييد على الإطلاق حتى أن أحمد سيف الإسلام حسن البنا حصل على صوت واحد من مائتي صوت ولكن لم يلتفت أحد لرأى محامي الإخوان وكان السبب الذي ارتكنوا إليه في هذا الالتفات هو ما زعمه البعض - خاصة أحمد سيف الإسلام - أن مختار نوح قام بتوجيه الأصوات الإخوانية وفقا لما يشاء هواه ولذلك فقد أصبحت نتيجة التصويت ليست محل اعتبار) ، وتمت الانتخابات وفقا لرؤية قسم المهنيين وبقائمة تضم عددا لا علاقة له بالمحاماة .

ولأسباب كثيرة - ليس هنا مجال ذكرها - نجحت قائمة الإخوان بشكل أصاب العالم بذهول ، فكان هذا هو الزلزال الذي أصاب القوى السياسية والنقابية التي تربعت زمنا على رأس العمل السياسي والنقابي .

كان هذا هو زلزال سبتمبر الذي جاء من بعده الزلزال الحقيقي في أكتوبر من نفس العام ... (وفي الحقيقة كان هذا النجاح هو أول بداية انهيار جبل الجليد الإخواني في نقابة المحامين)

***

حلف الفضول

هل كان نوح مثل بروميثيوس الإغريقي الذي أنشد نشيد النجاة قائلا : سأعيش رغم ضراوة الأعداء، كالنسر فوق القمة الشماء .. أما أنه كان مثل سيزيف في الأسطورة الإغريقية ، حيث كان عقابه أن يرفع صخرة من القاع حتى قمة جبل شاهق، وقبل أن يصل بقليل تسقط منه لأسفل ، فيعود ليبدأ

من جديد ، بلا نهاية !! فلتعلم أن مختار نوح مازال يحمل الصخرة على كتفيه بإصرار غريب ليصعد بها إلى أعلى الجبل .. ولنعد إليه في عام ١٩٩٦ حينما بدأ في حمل صخرة الجهاد ضد الحراسة التي مقتها المحامون وأنكروا الجرم الذي اقترفه الشانئون في حق نقابتهم .

كان بعض المحامين قد أحكموا أمرهم وخططوا ودبروا ثم أقاموا دعوى حراسة على النقابة وكان هدفهم إبعاد مختار نوح وفريقه عن مقاعدهم كأعضاء بالمجلس ... وكان لهم ما أرادوا فقد تم فرض الحراسة على نقابة المحامين أقدم وأعرق نقابة مهنية في مصر .

حينها جمع نوح حوله نفرا من أصدقائه من الإخوان ومن خارج الإخوان ليزيح الحراسة عن كاهل النقابة ... استخدم نوح كل الوسائل السياسية والقانونية والنقابية لتحقيق ما نريد ، فقام - مثلا - بطبع وتوزيع مجلة نقابية أطلقنا عليها اسم "المحروسة" فضح فيها الحراسة وأسبابها ، كما قام بتشكيل لجنة نقابية وسياسية أطلقنا عليها " لجنة المائة " تضم رموز المهنة وكان في مقدمتهم الأساتذة أحمد نبيل الهلالي وعبد المحسن شاشة - رحمهما الله - وهما من رموز اليسار المصري .. وكان في اللجنة أيضا محمد علوان مساعد رئيس حزب الوفد وجمهرة من الرموز لها قيمتها ومؤهلاتها الفكرية والحركية ، ومن عجب أن رموز المحامين الذين ينتمون للإخوان غابوا عن هذا النشاط ولم يكن لهم فيه ناقة ولا جمل .. فلم نر محمد طوسون أو بهاء عبد الرحمن أو أسامة محمود أو أحمد سيف الإسلام حسن البنا أو جلال سعد أو غيرهم من أعضاء مجلس النقابة العامة من الإخوان ... كما لم نر جمال تاج أو محمد غريب أو صبحي صالح (وهم من الرموز الإخوانية التي بدأت العمل في النقابة مع نوح) !! ... وكانت من الأفكار التي وضعناها موضع التنفيذ إقامة دعوى قضائية بطلب إنهاء الحراسة إلا أننا وضعنا اسم محامية ناصرية هي الأستاذة فاطمة ربيع على صحيفة الدعوى كي نعطي الانطباع بأن كل القوى السياسية تناهض الحراسة .

وفي غمرة انهماكنا بمشكلة الحراسة توفي الأستاذ أحمد الخواجة نقيب المحامين رحمه الله .. توفي في العشر الأواخر من شهر ديسمبر من عام ١٩٩٦ وكأنه يترك النقابة في شهر البرد رهنا للتجميد لتزيد البرودة في أوصالها المتيبسة .

لم يكن أمامنا بعد وفاة النقيب إلا البحث عن بديل يملك بعض مقوماته - فقد كنا نوقن أن هذا الرجل لن يتم تعويضه فى سنوات مقبلة - وفى رحلة البحث عن البديل تراءى لنا من بعيد أحد نجوم المحاماة وأحد أساطينها الأفذاذ .. ظهر لنا فى الأفق الأستاذ رجائى عطية الذى خطب ودنا فذهبنا إليه نعرض بضاعتنا ويعرض بضاعته ... ولربما كان هذا اللقاء هو لقاء الأحلام أو لقاء السحاب .. فقد كنا نحلم بإنهاء الحراسة وعودة الشرعية عن طريق صلاته السياسية وعلاقته الحميمية بالنخبة الحاكمة .. وكان رجائى يحلم - بعد وفاة الخواجة - بتوسد كرسى النقيب ليجمع بين المجد المهنى والمجد النقابى .

وقبل أن يرفع شهر مايو من عام ١٩٩٦ راية الاستسلام ويفسح الطريق لشهر يونيو جلسنا مع الأستاذ رجائى فى لقاء حفته المودة حيث عرض ما لديه ووعدناه إن هو فعل فحتما سنؤيده كنقيب للمحامين .. وفى اللقاء الثانى نقل لنا رسالة طمأنة من القيادة السياسية بأن الحراسة سيتم رفعها عن كاهل النقابة .. وبدأ رجائى فى المفاوضة معنا على لسان الحكومة - أو دائرة منها - وكان نوح بطبيعة الحال يعرض أمر هذه المفاوضات على مرشد الإخوان ومكتب الإرشاد وقد وجد صعوبة كبيرة فى إقناع قيادات الجماعة بقبول تأييدنا لرجائى فى مقابل صدور قرار من الجهات المختصة فى الحكومة بإنهاء حالة الحراسة ، ومن عجب وقف محمد طوسون وجمال تاج ضد تأييدنا لرجائى عطية إلا أننا دافعنا بكل قوة عن هذا الاختيار وكان لنا فى النهاية ما أردنا ووافق الإخوان على الدخول فى تحالف مع رجائى عطية .. تحالف نرفع فيه شعار "المشاركة لا المغالبة" .

لا ريب أن الأستاذ رجائى أبدى فرحته بقرار الإخوان .. وأظن أنه أضمر فى مكنون نفسه دهشته حين قال له خالد بدوى وهو يطرق إلى الأرض : وما هو الضمان الذى ستقدمه لنا يا أستاذنا .. كيف نضمن أنه لن يتم القبض علينا وحبسنا بعد انتهاء الحراسة ؟

نظر إليه رجائى شذرا وهو يقول : ضمان ! أى ضمان ! ثم استرسل فى لهجة حانقة : هل تريد أن أكتب لك شيكا مثلا !!

استمر خالد فى إطراقه للأرض وحينها قال أحمد ربيع : بالطبع لا .. ولكننا نريد أن نُقسم معاً إن تم القبض علينا أو على أحدنا قبل الانتخابات أن تعلن انسحابك من هذه الانتخابات .. وبعد كلمات أحمد ربيع وضعنا

أيدينا على يد الأستاذ رجائي الذى أقسم بما طالبناه به ، ثم قال خالد بدوى بعد القسم " الله على ما نقول وكيل " فردد الجميع خلفه " الله على ما نقول وكيل " .تكررت وعود الأستاذ رجائى بقرب إنهاء الحراسة إلا أن وعوده لم تتحقق رغم أننا عقدنا مؤتمرا ألفيا له فى فندق هيلتون رمسيس حضره أكثر من ألف محام وجلس على المنصة رموز من رجالات الدولة بجوار مختار نوح ورجائى عطية وأعلن نوح تأييد الإخوان لرجائى على منصب النقيب واعترف بخطأ الإخوان فى الاستحواذ والسيطرة على مقاليد الأمور فى النقابة وإقصاء القوى السياسية الأخرى ، ورفع لأول مرة أمام الرأى العام شعار " المشاركة لا المغالبة " ... ووعد رجائى بأن الحراسة أن لها أن تذهب أدراج الرياح وتحدث الجميع عن قرب تحقيق الحلم .. ولم يتحقق الحلم عن طريق رجائى ولا عن طريق صلاته السياسية ولم تتحقق وعوده المتكررة !!.

وبعد عامين صدر حكم - فى القضية التى أقمناها باسم فاطمة ربيع - من إحدى المحاكم العليا بإنهاء الحراسة المفروضة على نقابة المحامين ... ولم يكن رجائى صاحب الفضل ، ولكنما أراد الله أن يُنسب الفضل لأصحابه أولئك الذين جاهدوا وبذلوا وقدموا .

بعد صدور الحكم النهائى بأيام كنت أجلس فى بيتى صباح يوم الجمعة الثالثة من شهر أغسطس عام ١٩٩٩ منشغلا بقراءة الصحف وإذا برنين الهاتف يقتحم خلوتى .. كان المتحدث هو الصديق عاطف عواد أحد أفراد الإخوان من المحامين وأحد المقربين من مختار نوح .. كان صوته مرتبكا مضطربا ثم ساق لى خبرا مزعجا : تعرض مختار نوح لحادث مروع على طريق السويس وقد مات سائقه فى الحادث وتحطمت سيارته تماما .. أما مختار فقد تم نقله لإحدى مستشفيات مصر الجديدة فى حالة حرجة .

الفصل الرابع

بوابة الأحزان

،عندما أغلقوا عليه الزنزانة اشتد صوتُ الألم بداخله ، فرفع صوته حتي لا يسمعه .. وظل يرفعه ويرفعه حتي تمزقت خلاياه .. وحين ظن الناس أنه يتأوه من زنزانة صخرية الجدران أو من سجان صاحب سحنة غليظة أشار بيده إلي أخيه الذي جلس يأكل لحمه ويقتات علي سيرته،.

كراستي

هل يستطيع المرء أن يلخص أياما مشحونة بالأحداث والوقائع فى بضع سطور دون أن يترك شاردة أو واردة ؟ هل فى مكنة الإنسان أن يذكر كل وقائع أيامه بلا اختصار مخل أو تطويل ممل ؟ لا ريب عندى أن هذا هو عين المشقة التى تنوء بحملها فصاحة الفصحاء .. وهاهى كراستى أمامى .. تلك الكراسة التى دونت فيها كل شاردة وواردة مرت علينا فى تلك الأيام البغيضة فهل أستطيع نقلها بكاملها .. إن أنا فعلت فسأجور على وقائع أخرى ، وإن لم أفعل سأكون قد ظلمت نفسى وظلمت رجالا أفذاذا تركوا حياتهم وبيوتهم ومكاتبهم من أجل نصرة إخوان لهم شاء قدرهم أن يُحبسوا فى تهمة سياسية .. هاهى كراستى تعيد لى ذكرى أيام مضت .. أيام لم نفكر فيها - أنا وبعض إخوانى - فى دنيا نصيبها أو تقدير يبديه لنا مرشد أو مسئول إخوانى كبير، ولكن انصرف جل همنا لهؤلاء الذين يذهبون ضحية الخلاف السياسى الذى اشتد قيظه وحمى وطيسه بين الإخوان والنظام .. من يستخلصهم من محبسهم ؟ من يعيدهم إلى أهاليهم ؟ .

تتكدس عشرات الكراسات فى خزانتى .. تلك الكراسات التى كانت وما زالت الصديق الوفى الذى أهرع إليه وأبثه أشجانى وأحزانى وأزف إليه أفراحى .. أكتب فى حناياه ما مر بى وما مررت به .. وفى كل حين أعود إلى كراستى فأجدها مستودعا لسرى لم تبح به لأحد .. فى أحد أجزاء كراستى وجدت الصفحات التالية فرأيت أن أنقلها هنا دون أن أبتسر أو أختصر منها أو أضيف لها لعلها تلقى الضوء على الأحداث التى عشتها وعشت فيها وقتئذ .

((ضاقت ولما استحكمت حلقاتها فرجت ... ثم ضاقت مرة أخرى ... يبدو

أن هذا هو حال الدنيا تضيق الأمور علينا ثم تُفرج ثم تضيق .. ولودامت الدنيا على شيء ما بقي فيها شيء ... قالها مختار نوح وهو يدارى شهقة ألم أصابته ثم تقطعت أنفاسه وهو يقول : لم نكد نحصل على حكم بإنهاء الحراسة وقلنا كلنا فرجت وكنا نظنها لا تفرج حتى عاجلتنى هذه الحادثة المؤلمة .. هل تصدق .. مات السائق إلى رحمة الله .. فى طريق العين السخنة داهمتنا مقطورة ضخمة فحطمت السيارة وأصابت ضلوعى وساقى بالذى تراه الآن .. كل هذا يهون وتهون السيارة ولكن أن يموت السائق المسكين .. إيه .. رحمة الله عليه .

بادرته قائلا وأنا أرتكز فى وقفتى على كتف عاطف عواد الذى كان جالسا بجوار سرير مختار فى غرفته بمستشفى بدر : هون عليك فهذا هو قدر الله . الحمد لله فى السراء والضراء .. أتتذكر يوم أن كنت تلقى خاطرة منذ سنوات عن الآية الكريمة (إن مع العسر يسرا) فقد لفت نظرنا إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يقل : إن بعد العسر يسرا .. ولكن معه .. يأتى العسر ويرافقه اليسر .. يسير فى ركابه ولكننا قد لا نرى اليسر لأن العسر يعمى بصائرنا .

زفر نوح وهو يقول فى توافق لفظى مع عاطف عواد : الحمد لله .

عاد نوح إلى الكلام مرة أخرى بعد أن طرد إحساس الألم من داخله : عرفت أن وزير العدل طعن على حكم إنهاء الحراسة أمام محكمة النقض وأظن أن الجلسة ستكون فى غضون شهر سبتمبر القادم ويجب أن نستعد للجلسة بكل قوتنا .

قاطعه عاطف : لا تقلق فنحن لها يا عزيزى .. لا تشغل بالك .

نظر نوح إلينا نظرة امتنان وظهرت على وجهه ابتسامة ثم قال : عرفت الجهات الأمنية أننا وراء قضية إنهاء الحراسة .. أرسلت محاميا من مكتبى ليتابع الجلسة الأخيرة من بعيد ونبهت عليه بعدم الحضور إلا أن الحماس دفعه إلى الحضور أمام هيئة المحكمة وإثبات اسمى فى محضر الجلسة .. وطبعا عرف الأمن .

رفعت كتفى علامة اللامبالاة وقلت بعدم اكتراث : لا يهم .. كانوا سيعلمون حتما .. وأظن أنهم يعلمون قبل ذلك .. فالعصافير من حولنا فى النقابة لا هم لها إلا تجميع الأخبار .

استكمل نوح وهو ينظر إلينا نظرة إصرار : المهم أن نكون على أهبة الاستعداد ومن الممكن أن تتفق مع الأستاذ رجائى عطية كى يحضر جلسة النقض ويجب عليه أن يجرى مفاوضات مع الحكومة من أجل تنفيذ الحكم فقد وضعنا فى موقف حرج عندما عجز عن إنهاء الحراسة بقرار سياسى .. أن له الآن أن يذهب لوزير العدل وينهى هذا الأمر .. ومن باب أولى يجب عليه أن يحضر فى جلسة النقض .

اطمئن سنذهب إليه وسنتفق معه على حضور الجلسة معنا : قالها عاطف وهو يشير لى كى ننهى الزيارة حتى لا نثقل على الرجل .. وقبل أن نغادر غرفته التى ازدحمت بباقات الزهور قال وقد أغمض عينيه : أشعر أن هذه المحنة سيعقبها محن أخرى فقد رأى أحدهم رؤية لى كان تأويلها أنه ستمر بى ثلاث محن أدعو الله أن يثبتنى فيها جميعا .

اللهم آمين : قلناها أنا وعاطف ثم أردفت قائلا : لا تجزع فكل أمر المسلم خير .. لا تفكر فى أمر المستقبل فهو بيد الله ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعا وعند الله منها المخرج ..

وبعد أن ودعناه خرجنا إلى الطريق ولسعات حر أغسطس تلفح وجوهنا .

أطوى صفحات كراستى ولكننى لا أستطيع أن أطوى تلك الأيام وأضعها فى غيابة الجب ، فمازالت أحداث جمة من تلك الأحداث التى واجهتنى حينها ماثلة حتى الآن أمام ناظرى شاخصة أمام فؤادى ، بل إن هذه الأحداث خلفت أحداثا وأحداثا وأحدثت أثرا كبيرا فى حياتى .. أثرا فارقا لم يتصور خيالى أن أصل إليه ، ولربما يضيق الخيال على اتساعه ورحابته وتفاجئنا النوازل بما لم يرد فى الحسبان أو الخيال .. وحين أعود مرة أخرى إلى كراستى أجد فى موضع آخر منها الصفحات التالية تتحدث معى وكأنها تحاورنى وتذكرنى بما حاولت أن أنساه .

((كان يوم الخميس الرابع عشر من أكتوبر من عام ألف وتسعمائة تسع وتسعين كئيبا من أوله ، فلغير سبب ظاهر أصابتنى حالة وجوم هى أقرب ما تكون إلى الاكتئاب رغم أنه لم يكن هناك ما يستدعى ضيق الصدر أو الوجوم بل إن الأسابيع الماضية كانت تحمل تباشير الخير .... فقد كللت محكمة النقض جهودنا بالنجاح وأصدرت منذ أيام معدودات حكما نهائيا قضى بوجوب إنهاء الحراسة المفروضة على نقابة المحامين ورفضت طعن الحكومة

بعد جلسة عاصفة حضرناها وحضر معنا فيها رجائي عطية ، وبات تنفيذ الحكم مسألة وقت لا أكثر ، ومن ناحية أخرى بدأنا في إعداد العدة من أجل الترتيب للانتخابات القادمة وكانت جهود الأستاذ رجائي عطية تمثلت في المفاوضة معنا بلسان الحكومة عن العدد الذي يجب أن نخوض الانتخابات به .. فالحكومة ـ وفقا للأستاذ رجائي ـ تطالبنا بألا يزيد عدد المرشحين من الإخوان عن أربعة ونحن نحاول معه كي يصل العدد إلى ستة أو سبعة على أكثر تقدير .. ولم تكن المفاوضات قد أغلقت صفحاتها بعد .

مر نهار الرابع عشر من أكتوبر أو كاد وقبل الغروب بلحظات تصاعدت نغمات الهاتف المحمول لتخبرني أن إبراهيم بكري يطلبني وحين فتحت الخط جاء صوته مضطربا : إلحق يا أستاذ ثروت .. تم القبض على مختار نوح وخالد بدوي وإبراهيم الرشيدي وآخرين من الإخوان قبل عصر اليوم .

أصابتني رعدة وجفل قلبي وأنا أقول في ذهول : نعم .. أين ؟.. ولم ؟ .. وكيف .. ؟ .

ـ لا أعرف التفصيلات ولكن اتصلت بي منذ دقائق زوجة الأخ خالد بدوي لتخبرني بهذا الخبر .. حاولت هي الاتصال بك منذ لحظات ولكن يبدو أن هاتفك كان مغلقا .

قلت له وأنا لا أكاد أبين : هل تم القبض عليهم من بيوتهم ؟

ـ لا .. كانوا في المعادي في لقاء .

بح صوتي وأنا أقول : وما الذي أوجد إبراهيم الرشيدي معهما ألم يكن مسافرا ؟؟ أليس يعمل في الخارج الآن(١).

عاد صوت إبراهيم بكري الأجش يقتحم أذني مرة أخرى : هو في أجازة الآن .. كان من المفروض أن أكون معهم في لقاء سأحكي لك عنه عندما أقابلك ولكن الظروف منعتني من حضور هذا اللقاء .. أنا الآن ذاهب إلى بيت الأستاذ خالد بمدينة نصر .

قلت وأنا أتعجل إنهاء المكالمة : سأسبقك إلى هناك .

وعندما كانت سيارتي تسابق الطريق وتتحدى الزمن غير آبهة بشيء

١- كان إبرهيم الرشيدي عضواً بمجلس نقابة المحامين بالسويس ممثلاً للإخوان المسلمين وعندما ضاقت به سبل المعيشة سافر للعمل في إحدى دول الخليج وقد كان ذات يوم أحد الشخصيات التي ساعدت مختار نوح في تأسيس لجنة الشريعة الإسلامية بثوبها الإخواني.

تأرجحتُ بين المشاعر والأفكار مع تأرجح السيارة أثناء قفزها فى الطريق .. كانت مشاعرى تلطم قلبى وتزلزل كيانى وتحيلنى إلى قطعة ملتهبة من الثورة والغضب والحزن والكمد والكرب .. ولكأنما تجمعت الخطوب على فؤادى فأحالته أثرا بعد عين ، وليت الأمر كان وقفا على مشاعر بشرية مشروعة بثها الله فى أفئدتنا حتى نواجه بها نوازل الأيام ، إذ اقتحمتنى أفكار أدخلتنى إلى أتون من الحيرة .. كيف تم القبض على مختار وخالد وإبراهيم ؟ وأين ؟ ولماذا ؟ ولم لم يكن إبراهيم بكرى معهم آنذاك ؟ وما هى الظروف التى منعته فجأة من حضور لقاء يتصادف القبض على مختار فيه؟!... يا الله أيعقل هذا ؟(٢).

وفى بيت خالد بدوى عرفت القصة .. أخبرتنى زوجته أنه ذهب برفقة مختار وإبراهيم الرشيدى إلى اجتماع فى ضاحية المعادى .. اجتماع لقسم المهنيين فى الإخوان المسلمين .. وكان قد تم الاتفاق على عقد هذا الاجتماع فى مقر اتحاد المنظمات الهندسية للدول الإسلامية والتى يخضع مقرها فى مصر لإشراف نقابة المهندسين .

وعند حضور إبراهيم بكرى عرفنا منه أنه كان من المقرر أن يذهب معهم لهذا الاجتماع الذى كان سيناقش بعض الأمور التنظيمية الخاصة بانتخابات نقابة المحامين ورفع الحراسة عن باقى النقابات المهنية .

خرجت من بيت خالد وقد غامت الدنيا أمام ناظرى ، أغالب دفقة من البكاء خرجت من مكنون ذاتى وأرادت أن تجهش وتعلن عن نفسها إلا أننى كتمتها حتى حين ، وحين دخلت مسجد موسى بن نصير انفردت بربى وأجهشت بالبكاء)) .

محنة السجن

ويح قلبى مازال يخفق حين تمر من أمامه تلك اللحظات الشجية وكأنه يلح عليّ من فرط خفقانه أن أتوقف الآن عن النقل من كراستى ، فليس فى طوق خافقى الذى محت الحُرَقُ أثره أن يستمر فى استعادة تلك المشاعر الغضة

٢- إبراهيم بكرى كان تلميذاً لمختار نوح عمل فى مكتبه ثم انضم عن طريقه للإخوان المسلمين وكان ابراهيم لفترة طويلة لا يغادر مختار نوح فى ليل أو نهار وكان يتنقل معه فى كل المحافظات ويحضر معه كل الاجتماعات حتى أن الإخوان أطلقوا عليهما «مختار نوح وتابعه بكرى».

المشحونة بالشجن التى غرقت في لجتها آنذاك ، إذ عندما أستعيد هذه الأيام تنساب الدموع برفق من عيني رغما عني .

وإذ أخرج من لجة المشاعر أجدني أمام صفحات أخرى من كراستي تتحدث عن سبب الاجتماع التنظيمي الذى تم القبض عليهم فيه ، فقد كان من المقرر أن يناقش هذا الاجتماع خطة الانتخابات والتحالفات التى أعددناها ووافقنا عليها فى القسم .. وهاهو ما تضمنته تلك الصفحات من كراستي .

((كانت محاور الخطة التى أعددناها والتى كان سيدور النقاش بشأنها فى هذا الاجتماع تتلخص في عدد من المرشحين لا يزيد على ستة .. أما من حيث التحالفات فقد كانت تدور حول إفساح الطريق للقوى الوطنية المختلفة للتعبير عن نفسها عن طريق تحقيق شعار المشاركة لا المغالبة بشكل حقيقى لا يقف عند حد الشعار ولكن ينزل إلى أرض الواقع .

لم تكن هذه الخطة بطبيعة الحال ترضى الكثير من الإخوان ، وكان أحمد سيف الإسلام حسن البنا من أكثر المعترضين عليها إذ أنها من الممكن أن تطيح بفرصه فى الترشيح - بل إنها كانت ستطيح به بالفعل - ، كما كان جمال تاج من أوائل الواقفين فى صفوف المعارضة ضدها ، وكان محمد طوسون بطبيعته الباحثية - كضابط مباحث سابق - يقف ضد هذه الخطة من طرف خفى إذ من الممكن في حال تطبيقها أن تطيح به هو الآخر وتمنعه من الترشيح لعضوية المجلس ... كان أحدهم يرغب فى تدمير هذه الخطة ووأدها .. ولم يكن فى طوق أحد وقتها الوقوف ضد مختار نوح في إصرآره على تنفيذ خطتنا وهو الذى يحظى بالتأييد المطلق من المستشار مأمون الهضيبى نائب المرشد - وقتها - وكانت مسألة عرض الخطة على قسم المهنيين مسألة شكلية فقد تم الحوار مسبقا مع معظم أفراد قسم المهنيين وتهيئتهم لقبول الخطة وقبول أسماء المرشحين من الإخوان وكان أبرزهم بطبيعة الحال مختار نوح وخالد بدوى ولم يكن فيهم أحمد سيف الإسلام حسن البنا ابن المرشد الأول حسن البنا ... وفى أثناء عرض مختار لخطة القسم قامت قوة من جهاز أمن الدولة بمداهمة الاجتماع والقبض على كل الإخوة .. والغريب أن جهاز أمن الدولة قام بالقبض على بعض الإخوة الذين كانوا قد غادروا الاجتماع مبكراً وإخوة لم يحضروا الاجتماع أصلا .. إلا أنه أيضا أغفل القبض على إخوة آخرين غادروا المكان منذ لحظات قليلة قبيل المداهمة وكانوا

تحت بصر الأمن !!))

حتما أعود إلى حديث المشاعر فصفحات كراستي مشحونة بها ، وقد لا أدرى أأقوم الآن بالنقل من كراسة أم أقوم بالنقل من فؤاد جهل بعضهم بعض ما فيه ؟ وأنكروا البعض الآخر !! يقول الشعراء إن المتنبى مات حتف أنفه بسبب بيت من الشعر كتبه في الفخر ، فحين لقى عدوا له هم بالفرار فقال له عدوه أتفر وأنت الذى قلت : الخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم .. فعاد إليه المتنبى فقاتله فقُتل .. أما مشاعرى فهى التى أحيتنى فيما بعد ، فإذا كان الفخر في غير موضع يقتل حينا فإن القلب ومشاعره فى موضعها تحيى فى أحيان أخرى ... وهاأنذا أنقل من كراستى أحداثا حاطتها المشاعر وتداخلت فيها .

((لكل إنسان نفسية تحب وتبغض .. ترضى وتسخط .. تستبشر وتجزع .. تحزن وتسعد .. تتوخى وتهرع .. وأظن أن المشاعر تنتاب الإنسان فرادى فمن العسير أن تتجمع المشاعر المتناقضة كلها فى آن واحد وفى لحظة واحدة فى نفس واحدة .. ولكن العسير حدث وانتابتنى كل المشاعر المتناقضة فى تلك اللحظة التى رأيت فيها مختار نوح وخالد بدوى وهما تحت الأصفاد قيد الحبس .. فبقدر ما كانت مشاعرى تجاههما مشاعر حب ورضا .. وبقدر ما سعدت بصحبتهما واستبشرت بالخير دائما حين كنت ألقاهما بقدر ما كرهت وسخطت وبغضت الظلم الذى وقع عليهما .

كان المشهد مؤلما في مقر نيابة أمن الدولة بمصر الجديدة .. وكان الأكثر ألما أن رأيت مختار وخالد ومن معهم من الإخوان وهم ينزلون من سيارة الترحيلات والأصفاد تكبل أياديهم والجند يدفعونهم صوب الباب الخلفى الذى يؤدى إلى حجرة الحجز .. وإذا كان ألم الجسد يتلاشى حين تخديره فليس ألم النفس يقبل تخديرا أو تغييبا .. ورغم محاولاتى المضنية التى بذلتها من أجل إخفاء ملامح الألم والحزن التى كست وجهى إلا أننى فشلت .. فما معنى الابتسامة البلهاء التى ندت عنى فى حين أن ملامحى كانت مصلوبة على مذبح الألم ، وكيف يذهب الحزن خلف السحاب والسحاب قد انسحب من وطأة الوجوم .

هوّن عليك يا فتى فما هى إلا أيام وسنعود إلى بيوتنا .. قالها نوح وهو يبث الطمأنينة فى نفسه ونفسى ثم اتكأ على عصاه وهو يناولنى معطفه قائلا

: من فضلك خذ هذا المعطف الآن إلى بيتى .. ثم ضحك مسترسلا : فهو ماركة عالمية من "بيير كاردان" ... ولا تنسى أن تُحضر لى من البيت ملابس بيضاء، لزوم السجن ولكن قل لهم ملابس السجن ماركة " إيف سان لوران" ... وارتفعت ضحكته لتحلق فى سماء الردهة الكبيرة بنيابة أمن الدولة بالدور الثانى التى تتفرع عنها حجرات السادة أعضاء النيابة .

كانت الردهة مليئة عن آخرها بالمحامين الذين تقاطروا من كل صوب وحدب وكان الكل تقريبا يلتف حول مختار الذى ظهر الإعياء عليه خاصة وأن ظروفه الصحية بعد الحادث الذى وقع له من شهرين قد تأثرت بشكل كبير إلا أن معنوياته المرتفعة كانت تخفى هذا الإعياء عن عيون الجميع .. وحين تركت مختار ليتحدث إلى الجمع الذى التف حوله يسألهم عن رجائى عطية وأين هو ؟ ولماذا لم يأت ؟ سمعت بعضهم يقول إنه الآن فى قرية " مارينا " بالساحل الشمالى وأن البعض أخبره بما حدث وأنه سيأتى غدا ولذلك يطلب من كل الإخوة المقبوض عليهم أن يمتنعوا عن الإجابة عن أسئلة النيابة ويحصرون أقوالهم فى طلب التأجيل لحين حضور محاميهم الأستاذ رجائى ... اقتربت من خالد بدوى وهو يمسح جبينه من قطرات الماء التى تخلفت من وضوئه وابتسمت وأنا أربت على كتفه حينها انفرجت أساريره عن ابتسامة عريضة وقال مداعبا إياى والبشاشة يخفق بها وجهه وتنبض بها شرايينه : أتذكر يوم أن كنت أضحك معك وأقول " ربنا ها يوديك الـ محكمة " .. هههه ... اليوم ربنا ودانى المحكمة .

بادلته الضحك وأنا أقول : ليست المحكمة .. ولكن النيابة .. نيابة أمن الدولة ، أما المحكمة فندعو الله ألا تذهب إليها .

قال بسكينة : يا سيدى .. لا تقلق ولا تحزن .. مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها ، كل شيء بقدر الله .. لا يقع فى ملك الله إلا ما يريد .. هه .. هل تنازع فى هذا ؟ لا يقع فى ملكه إلا ما يريد .. وما تشاءون إلا أن يشاء الله .

سمعت صوت أحد المحامين وهو يقول : الأستاذ خالد بدوى مطلوب فى الداخل لبدء التحقيق .

رافقته وأنا أقول له : سنطلب التأجيل لحين حضور رجائى غدا .. هل لديك خطة دفاع معينة .

سار إلى جانبى وهو يهمس : ليس لدينا إلا لا إله إلا الله .. سبحان الله وبحمده اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلا .. ومن بعد ستكون التذكرة .. فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر .

وبدأت التحقيقات فى اليوم التالى مباشرة وفى حضور الأستاذ رجائى وجمهرة من المحامين حيث تم تقسيم المتهمين بيننا فحضرت كل مجموعة مع أخ من الإخوة وكان من نصيبى أن حضرت مع خالد بدوى ومختار نوح ثم تنقلت بين حجرات التحقيق فتارة أجلس فى التحقيق الذى يدور مع الدكتور محمد بديع وتارة أخرى أحضر فى التحقيق مع إبراهيم الرشيدى وهكذا دواليك .. كانت التهمة التى واجهت بها النيابة الإخوة المقبوض عليهم هى الانتماء لتنظيم سرى غير شرعى وتحريك هذا التنظيم وسط الجماهير بقصد التغلغل فى منظمات المجتمع المدنى ، والتخطيط لخوض انتخابات النقابات المهنية ومنها نقابة المحامين ، وقد تم القبض على المتهمين أثناء اجتماعهم التنظيمى الذى كان يجهز العدة لما سلف وبذلك - وفقا لنيابة أمن الدولة - تكون الأدلة قد تجمعت على ارتكاب المتهمين إحدى الجرائم المعاقب عليها فى قانون العقوبات ... وقد شارك فى القبض على المتهمين بعض رؤساء نيابة أمن الدولة إذ وردت تحريات مسبقة للمباحث تفيد تفصيلات هذا الاجتماع وظلت القوة التى رافقت النيابة كامنة بالقرب من مقر الاجتماع حتى حضر مختار نوح وخالد بدوى فتم مداهمة المكان والقبض على الجميع !! ولكأنما كانت الأجهزة الأمنية تنتظر الصيد الثمين لتنقض عليه وكان لها ما أرادت !! قررت النيابة حبس المتهمين خمسة عشر يوما ويراعى لهم التجديد فى الميعاد .. كان هذا هو القرار الذى أصدرته النيابة وفور صدوره نقلته - ومعى أحمد ربيع وإبراهيم بكرى - للأستاذ رجائى عطية الذى لم يكن قد غادر مبنى النيابة بعد فأغمض عينيه وشهق شهيقا عميقا كأنما يلملم قواه وقال : لا ضير سأقابل النائب العام وسأنهى هذا الأمر برمته فى جلسة التجديد القادمة .. اطمئنوا سيتم الإفراج عنهم لا ريب عندى فى ذلك هذا وعد .

غادرنا الأستاذ رجائى عطية وذهب إلى شأنه فانصرفنا من بعده بعد أن ودعنا مختار وخالد إلا أننا انصرفنا إلى مكتب أحد المحامين من الإخوان حيث كنا - قسم المحامين فى جماعة الإخوان - قد حددنا موعدا فيما بيننا للاجتماع من أجل تحديد الواجبات والمسئوليات فى الفترة القادمة .

كان العدد الذى حضر الاجتماع كافيا لاتخاذ القرارات وإسناد المسئوليات ، وكان أول المتحدثين هو محمد طوسون الذى طلب اختيار أحد أعضاء لجنة السبعة ليكون مسئولا عن قسم المحامين ، ونظرا لأن أحمد ربيع كان هو الأمين العام لتلك اللجنة فقد تم اختياره وفقا للائحة ليكون هو المسئول المؤقت لحين خروج مختار وأن عليه وفقا لهذا التكليف أن يدير القسم ومعه لجنة السبعة التى تشرف على القسم .

لم تكن الرئاسة حلم أحد منا ولم يفكر أحدنا فيها فقد كان حلمنا الأكبر هو خروج مختار وخالد إلى الحرية ، وكانت وعود رجائى عطية بالإفراج عن الثلاثى مختار وخالد وإبراهيم الرشيدى أمرا يقينيا عندنا فلهجة الرجل وهو يتحدث فى هذا الشأن كانت حاسمة وقاطعة لا ريب فيها .. ورغم ذلك اعترض محمد غريب على إسناد الرئاسة لأحمد ربيع وقال إنه يجب أن تتم انتخابات فى القسم لتحديد الشخص الذى سيتولى الرئاسة بشكل مؤقت إلا أن طوسون قال له بحسم : يا أخ محمد يبدو أنك اعتقدت أن الرئاسة هنا ستكون بشكل دائم .. يا أخى اعلم أن أحمد سيكون فى موضع المسئولية بشكل مؤقت ولن يستمر فى موقعه هذا ، وأدعو الله أن يخرج مختار سريعا ليسترد مسئولياته أما مسألة الانتخابات هذه فتكون حين يكون الاختيار بشكل نهائى .

قال أحدهم موجها حديثه لأحمد ربيع : يا أستاذ أحمد ليست المسئولية تشريفا ولكنها تكليف .. ومن أجل ذلك يا أخى الكريم يجب أن نتحرك على كل الأصعدة .. يجب أن نمارس ضغوطا سياسية ونقابية تساعد الأستاذ رجائى على إنهاء هذا الأمر برمته والإفراج عن إخواننا .

بادر أحمد ربيع وكأنه فكر فى هذا الأمر من قبل : أوافق على هذا ولذلك يجب أن نتصل بكل الأطياف السياسية والنقابية .. نتصل بخصومنا قبل أصدقائنا نتواصل مع الجميع وندعوهم لحضور جلسة التجديد القادمة .. لا

شك أن هذا الحضور سيشكل ضغطا على الجهات المسئولة .

أمسكت طرف الخيط من أحمد : وفوق هذا ينبغي أن نعقد مؤتمرات يومية في محاكم القاهرة من أجل تثوير عموم المحامين وإثارة الحمية فيهم .. فمختار وخالد هذان اللذان وقفا وقفة تاريخية في موضوع عبد الحارث مدني وأشعلا ثورة داخل النقابة من أجل مقتل أحد المحامين يجب الا ينساهما المحامون .. لا نريد الحشد الذى سيحضر جلسة التجديد حشدا نخبويا فحسب ولكن نريده حشدا شعبيا جماهيريا لعل الجهات المسئولة تعدل عن التصعيد وتفرج عنهم خوفا من ثورة المحامين .. يجب أن نشعلها ثورة .

وأخذت الاقتراحات تتوالى وازدادت الحمية ونفر الحماس من عروقنا وأخذنا نضع تصورات لكيفية وضع الاقتراحات موضع التنفيذ ، إلا أن هذا الحماس لم يخف شماتة ظهرت في عيون البعض .. فقد كان بعضهم يخفى في خبيئة نفسه فرحة غامرة بحبس مختار وخالد !! ولم تستطع كلماتهم المغلفة بجدية مصطنعة إخفاء تلك الشماتة التى قفزت من عيونهم وتفلتت من خلال ألسنتهم رغما عنهم .. فإذا كان الشاعر أحمد رامى أخبرنا أن " الصب تفضحه عيونه " فإن الغل هو الآخر يخرج من عين صاحبه وينم عن أسراره الدفينة .

توالت المؤتمرات اليومية فى محاكم القاهرة وفى غرفات واستراحات المحامين وفى مقر النقابة العامة .. ولا أظننى مغاليا إذا قلت أن هذه المؤتمرات أحدثت استنفارا للمحامين من كل الجهات والتوجهات ، وفى ذات الوقت قمنا بتشكيل فريق عمل كنت أحد أفراده ويضم محمد طوسون وأحمد ربيع وإبراهيم بكرى وبهاء عبد الرحمن وكانت مهمة هذا الفريق الاتصال بكل الناشطين من القوى السياسية ومن النخب الوطنية من المحامين ومن غير المحامين والترتيب معهم من أجل دعمنا فى قضيتنا .. قضية إخواننا المحبوسين .. واحر قلباه عليهم .

وجاء يوم تجديد الحبس وتجمهر خلق كثيرون أمام مقر النيابة وازدحمت ردهات النيابة بعشرات من المحامين .. وعشرات من الصحفيين .. وعشرات

من نشطاء حقوق الإنسان.. كان أحمد نبيل الهلالي يقف مع حمدين صباحي وبجوارهما منتصر الزيات ومعهم عبد العظيم المغربي من اتحاد المحامين العرب والدكتور إبراهيم صالح وأحمد عبد الحفيظ وكامل مندور وسيد شعبان وسامح عاشور .. الكل على قلب رجل واحد ... الكل يتأهب تلك اللحظة التي سيدلي بدفاعه فيها عن مختار ومن معه ... كانت كلمات الأستاذ رجائي الواثقة التي همس بها في آذاننا قبل بدء الجلسة تبعث قدرا من الاطمئنان في أفئدتنا وكأنها نبوءة : اطمئنوا فكل شيء على ما يرام واليوم سنحقق مبتغانا إن شاء الله .

توالت الأفكار على خاطري تمور بالمشاعر بعد إذ سمعت نبوءة رجائي ... هل كانت نبوءة أم رجاءً ؟ هل كان حلما فخاطرا فاحتمالا ؟ وهل تتحقق النبوءة في زمن انقطعت فيه المعجزات ؟ ليس من المستطاع أن يتحول الحلم إلى حقيقة بمجرد التمني .. وهل تؤخذ المطالب بالتمني أم أنها تؤخذ غلابا ... هل يصدقنا رجائي ويكون قد بذل جهدا سياسيا أم أنه يراهن على جهده القانوني ؟! الكل يعلم أن مسألة القبض على تلك المجموعة لها جوانبها السياسية التي تقف على تخوم الجوانب القانونية فإلى أين سيذهب بنا رجائي ؟ .

انقطع حبل أفكاري حين بدأت جلسة التجديد ، وحين النداء على القضية ازدحمت غرفة التحقيق التي مثل فيها مختار حتى أننا جميعا وقفنا متراصين كالموج المتلاطم إذ لا مكان يتسع لجلوس أحد وترافع يومها عن نوح أكثر من عشرين محاميا يتقدمهم رجائي عطية وكذلك كان الأمر بالنسبة لخالد بدوي ... وبعد انتهاء المرافعات وقفنا في طرقات النيابة وقلوبنا تخفق بالرجاء وتنبض بالتمني ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه .. خرج القرار باستمرار الحبس لمدة خمسة عشر يوما أخرى ، وحين بحثت عن رجائي لم أجده .))

((حين رأيت الدنيا من حولي يزداد ظلامها تحدثت مع أحمد ربيع وبهاء عبد الرحمن واتفقت معهما على أن نذهب إلى رجائي عطية في مكتبه لنقف على خبر يقيني بشأن الإفراج عن إخواننا ، ونظرا لأن بهاء يرتبط مع رجائي بروابط عمل فقد طلبنا منه أن يحدد لنا موعدا وعلى الفور أنجز بهاء مهمته وحدد الموعد ، وفي الموعد المتفق عليه ذهبنا جميعا ، وتصادف أن كان مع بهاء أخونا جمال برعي فذهب معنا .. وفي مكتبه الكائن بعمارة الإيموبيليا

بشارع شريف جلسنا نتحاور معه .. كان جمال برعى حادا ومندفعا مع رجائي وقال له بالحرف : أنت وعدتنا كثيرا يا أستاذ رجائي ويجب أن تبذل جهدا كبيرا من أجلنا هذه المرة ليس من أجلنا ولكن من أجلك أنت .. من أجل مشروعنا المشترك . حاولت أن أخفف من حدة كلمات جمال برعى فقلت لرجائي : أذكر أنني سمعت يوما الدكتور القرضاوى وهو يتحدث عن العقلية الجمعية فقال إنه وهو بعد صغير اشترك فى مظاهرة وعندما أمسك أحد المتظاهرين حجرا وقذف به واجهات المحلات فعل كل المتظاهرين مثل ذلك وكان من عجبه أن انحنى هو الآخر وأمسك مثل الجميع حجرا وفعل مثلما فعلوا .. وأنا أخاف أن يغضب أحد إخواننا من المحامين من استمرار حبس مختار وخالد فيمسك حجرا ويقذفه على مشروعنا الذى بنيناه سويا ، وحينئذ أخاف أن يفعل مثله باقى الإخوان فيقفون ضدك فى الانتخابات .. يجب يا أستاذنا الفاضل أن تبذل كل ما تستطيع .. نحن نحبك ونتمنى أن يقف كل صفنا معك .

فأجاب رجائي بأنه يبذل كل الجهد وأنه تحدث مع شخصيات سياسية كما تحدث مع النائب العام وأن أمر الإفراج تأخر ولم يحدث فى الجلسة الماضية نظرا لأن تقرير خبير الأصوات عن التسجيلات الصوتية للحوارات التى كانت تدور بين المقبوض عليهم فى الاجتماع التنظيمى لم يكن قد تم الانتهاء منه بعد وأنه حتما سيتم الإفراج عنهم فى الجلسة القادمة خاصة وأن تقرير الخبير على وشك الانتهاء .. ثم وجه رجائي حديثه لجمال برعى وقال له يا أخ جمال أنت فى بنى سويف ولا تعلم ما أفعله أنا من أجل مختار وخالد وإبراهيم الرشيدى ، وبدلا من أن تلومنى أنا وجه اللوم لمختار وخالد .. أيعقل هذا يا جمال يا برعى !! ما الداعى لكى يحضر مختار اجتماعا تنظيميا فى هذه الأيام ؟!! .

وهنا تدخل أحمد وقال : يا أستاذ رجائي هذا اجتماع لقسم المهنيين وكان يناقش أمر خطتنا الانتخابية .. كنا نريد أن نحصل منهم على موافقة نهائية بعدد المرشحين الذين سيمثلون الإخوان .

أكمل بهاء عبد الرحمن كلام أحمد وقال وهو يضحك ضحكته المعروفة عنه : عموما ربنا ستر كنت أنا وأحمد ربيع فى طريقنا لحضور هذا الاجتماع لكن تم القبض عليهم قبل أن نذهب . أنا عن نفسى اختبأت عند مترو الأنفاق ،

كانت مسئوليتك ستتضاعف لو تم القبض عليّ .

نظرنا إلى بهاء ونحن نزجره بعيوننا واضطررت إلى مقاطعته وقلت لرجائى : لو سمحت يا أستاذ رجائى لو يساعدك فى مفاوضاتك أن ننسحب من هذه الانتخابات كلها بحيث لا يكون لنا فيها لا ناقة ولا جمل فسنفعل .

فوجئ رجائى بكلامى ويبدو أنه فهم منه أننا سننسحب وسنترك الانتخابات كلها بما يعنى أننا لن نقف معه فكاد أن يقفز من مقعده وقال : لا لن تصل الأمور إلى مثل هذا أنا لا أقبل انسحابكم وسيخرج مختار حتما .. فى الجلسة القادمة سيخرج)) .

إلي العسكرية

تحتاج هذه الفترة إلى كتاب مستقل يحكى ويغوص ويحلل ، فلا يمكن أن تحيط بها هذه السطور أو تفصلّ أحداثها أو تحلل لها ولكنها قد تستخرج أهم وقائعها لتبعث فيها الحياة من جديد فتبوح لنا بأسرار مخبوءة تكاتف الكثيرون على طمسها .. وإذ كنت أقلب باقى صفحات الكراسة وجدت هذه الفقرة الهامة لعلها تكون خير شاهد على ما حدث آنذاك ، أو بالأحرى لعلها تلقى الضوء على أيام أراد لها البعض أن تذهب طى النسيان .

((نحن الآن فى شهر نوفمبر منَ عام ١٩٩٩ والأيام تمر بطيئة وكأنها لا تمر .. فى هذه الأيام نسيت مكتبى ونسيت أعمالى ، وغبت عن زوجتى وعن أبنائى قرة عينى مرام ويحي ، فأنا أعتبر نفسى فى مهمة إسلامية .. وهل هناك أعلى قيمة من رجل يبتغى وجه الله فى إخوانه فيكون لهم وجَاءً من غوائل الأيام .. كان الله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه .. أنصر أخاك ظالما أو مظلوما .. وأنا أنصر أخى المظلوم .. أنا فى عبادة مستمرة فى هذه الأيام وأرجو من الله سبحانه وتعالى أن يأجرنى عليها وتكون بابى إلى الجنة .. لا توجد بوادر تنبئ عن قرب الإفراج عن مختار وخالد وإبراهيم بل العكس هو الصحيح .. هل رجائى يصدقنا ؟ أخاف من طريقته معنا .. أشعر أنه يصب الماء البارد على نارنا المشتعلة حتى نهدأ .. أنا أحب رجائى جدا وأحترمه كرجل قانون وكمفكر بارز وأتمنى أن يكون نقيبا للمحامين وأن يكون زوال الغمة على يديه .. يا رب كن معنا وساعد رجائى فى سعيه وبارك له فى هذا السعي واجعله فى ميزان حسناته.

اليوم هو الخميس وقد حدث شيء غريب .. كنا فى مؤتمر بمحكمة شمال

القاهرة ..ألقيت كلمة وسط عشرات من المحامين لدفعهم إلى اتخاذ موقف حاسم يعيد للمحاماة أيام مجدها .. ذكّرتهم بموقف مختار فى حادثة مصرع المحامى عبد الحارث مدنى وقلت لهم إما أن نكون أو نظل عشرات السنين تحت رحمة السلطة التنفيذية .. كان بعض المخبرين من جهاز أمن الدولة يجلسون وسط المحامين ويسجلون كل كبيرة وصغيرة وحين خرجت إلى موقف سيارات المحكمة لأركب سيارتى وجدت السايس عم " أبو زهرة " يسرع إلى السيارة ويفتح لى بابها وهو يهمس فى أذنى : يا أستاذ ثروت سلم لى على الأستاذ مختار فكلنا نحبه ولن ننساه وربنا يخفف عنه .. أستاذ ثروت أريد أن أنقل لك خبرا هاما .

قلت له خير يا عم أبو زهرة ؟

قال والتأثر باديا عليه : أخبرنى محمود الفقى مخبر أمن الدولة الذى كان يرصد مؤتمركم فى المحكمة اليوم أن قرارا سيصدر اليوم بإحالة مختار وإخوانه إلى المحكمة العسكرية .

نظرت إلى " أبو زهرة " بفزع وقلت له غير معقول .. هذا تخريف ، محمود الفقى كان يعبث بعقلك .. لا تصدقه .

وعندما ركبت سيارتى اتصلت هاتفيا بإبراهيم بكرى وأخبرته بما أخبرنى به أبو زهرة واتفقت معه على أن نذهب إلى رجائى فى أى مكان يكون فيه ، وعندما اتصلنا برجائى وجدناه فى محكمة دار القضاء العالى فذهبت إليه وأنا أقود السيارة بسرعة جنونية .. وحين التقيناه أنا وإبراهيم أخبرته بما وصل لى من معلومات فنظر لى وكأنه ينظر إلى رجل فى عقله خبل وقال بابتسامة : مخبر وسايس يا ثروت .. سايس سيارات يهذى فتصدقه !! .. كنا نجلس فى استراحة المحامين وكان يجلس بجوارنا أحد الأصدقاء من المحامين من غير الإخوان اسمه أحمد حلمى فقال هذا الصديق لرجائى : لن نخسر شيئا لو أجريت اتصالاتك لتسأل عن هذا الأمر .. أفعل هذا حتى تطمئن قلوبنا .

فأمسك رجائى هاتفه المحمول وأجرى اتصالا أمامنا ثم خرج من الاستراحة لينفرد بمكالمته وبعد هنيهة عاد إلينا وهو يبتسم ابتسامة عريضة وقال بصوت جهورى ليسمعه كل المحامين الذين كانوا يجلسون بجوارنا : لم يحدث شيء ولم ولن تكون هناك إحالة للمحكمة العسكرية وسيتم الإفراج عن

مختار وخالد وإبراهيم فى الأسبوع القادم .. هذا خبر وليس أمنية .

وفى أول الليل عقدنا أنا وأحمد ربيع وإبراهيم بكرى اجتماعا مع محمد طوسون فى أحد المقاهى بشارع الألفى بمنطقة وسط البلد حيث تناقشنا فى كل الأحداث التى مرت بنا فى هذا اليوم وأخبرناه بذلك الخبر المزعج الذى تسرب إلينا عن إحالة مختار ومن معه للمحكمة العسكرية وقلت له رد فعل رجائى فلم يعقب إلا بهمهمات وابتسامة ليس لها معنى ثم انتهى الاجتماع قبل منتصف الليل بقليل ، وفى الطريق إلى بيتى قمت بشراء كل الصحف اليومية والمستقلة التى ستصدر صباح الجمعة والتى تخرج طبعاتها الأولى فى الليل ، وفى غرفة المعيشة جلست أقرأ الصحف وأنا أتحدث مع زوجتى تارة وأدعو الله بصوت مسموع تارة أخرى " يا رب يكون خبر إحالة إخواننا للمحكمة العسكرية خبرا غير صحيح " وعندما وقعت عينى على إحدى الصفحات الداخلية بجريدة الأهرام وقعت عينى على خبر صادم (إحالة قضية مختار نوح إلى المحكمة العسكرية) .. أسكتتنى الصدمة وحين سألتنى زوجتى لماذا سكت قلت لها أنا الآن مثل ذلك التلميذ الذى أخذ يدعو الله قائلا " يا رب تكون باريس عاصمة لبنان ، وعندما سألته أمه لماذا تدعو الله هذا الدعاء قال لها لأننى أجبتها هكذا فى الامتحان .. ونحن ما زلنا نصدق وعود الأستاذ رجائى رغم أنه صدر قرار بإحالة مختار ومن معه للمحكمة العسكرية ، عرف هذا القرار السايس ومخبر أمن الدولة ولم يعرف به رجائى .. أظن أنهم يخدعونه ... ويحك يا يوم الخميس ففيك تم القبض عليهم وفيك تمت إحالتهم للمحكمة العسكرية .))

★★★

حين أستعيد ذكرى هذه الأيام يقفز الدم فى شرايينى قفزا حتى يكاد وجهى يصطبغ باللون الأحمر ، ولم لا وقد كانت كل لحظة من لحظات تلكم الأيام تحمل خبرا أو حدثا .. أملا أو إحباطا .. خوفا أو تهورا .. وحين أمسك كراستى لأنقل منها أشعر كأن قلبى هو الذى يقلب صفحاتها فقد كانت هذه الكراسات بعضا من نبضى ومكنون ذاتى ، وحين أدلف إلى تلك الكراسة التى استودعتها أحداث المحاكمة العسكرية فإننى أستعيد معها سراجا خافت الضوء من أحداث لما تزل بعض شفرات أسرارها فى رحم الغيب ... وإذ كنت على وشك أن أطوى بعض صفحات الكراسة لأذهب إلى

صفحات أخرى وقع نظرى على سطور بهت مدادها ولكن أحداثها لم تبهت إذ ما زالت ماثلة فى وجدانى .. ولا أجدنى فى حاجة إلى كتابة مقدمة لهذه السطور ولكننى أنقلها هنا كما هى .

((نحن الآن فى منتصف شهر نوفمبر ، جلست لأكتب هذه الكلمات قبل منتصف الليل ، أما فى الصباح فقد كانت المحكمة العسكرية تنظر أمر تجديد حبس إخواننا من المحبوسين وكان الأستاذ رجائى عطية قد أخبرنى وأخبر كل الإخوة أنه أجرى اتصالات وأنهم حتما سيفرجون عن المحامين مختار وخالد وإبراهيم ، وللأسف لم يتحقق وعده ، هذا الرجل صادق ، ليس عندى ذرة شك فى أخلاقه فهو شخصية جديرة بالاحترام ولكننى أشعر أنه تنقصه الحنكة السياسية ، ويبدو أن هناك بعض أفراد من المقربين من دوائر السلطة يكررون وعودهم له وهو لطيبته يصدقهم ولكن هل يجب أن نصدقهم أيضا ؟ بعد جلسة تجديد الحبس التى انتهت قبل صلاة الظهر وقف الأستاذ رجائى على باب المحكمة العسكرية بالحى العاشر وهو يبدى ألمه من قرار تجديد الحبس وكان يقف معه أحد المحامين من فريق عمله الانتخابى وهو الأستاذ "مصطفى محمود" المحامى الناصرى وكان يقف معهما أيضا أحد المحامين من أصدقائى ، وبعد انصراف الأستاذ رجائى جاء لى صديقى الذى كان يقف معهما وأخبرنى أن مصطفى محمود كان يخفف عن الأستاذ رجائى حزنه فقال له (ولا يهمك يا أستاذ رجائى وحتى لو تم حبس مختار حبسا نهائيا فسوف يقف معك الإخوان والحذاء فوق رأسهم لأن منافسك هو سامح عاشور خصمهم التاريخى) ولما كنت لا أحب أن يكون الحذاء فوق رأسى فقد اصطحبت أحمد ربيع وإبراهيم بكرى وذهبنا فى أول الليل إلى مكتب رجائى وقلت له ما وصلنى فاقر بحدوثه وقال إنه غير مسئول عن كلام مصطفى وأنه لا يقبل هذا الكلام ثم قال : حقك على يا عم ثروت !! عدت إلى بيتى وأحاسيسى ثائرة ونفسيتى مهتاجة وحين هدأت أخذت أقرأ قصيدة هاشم الرفاعى " رسالة فى ليلة التنفيذ " وقد هزتنى أبياتها هزا وقد امتزجت معها من أول بيت " الليل من حولى هدوء قاتل والذكريات تمور فى وجدانى " إلى البيت الذى قال فيه : انا لست أدرى هل ستُذكر قصتى أم سوف يعروها دجى النسيان ×× أم أننى سأكون فى تاريخنا متآمرا أم هادم الأوثان .... وبعد أن قرأت القصيدة فكرت فى إخوانى المحبوسين ، كنت كأننى أنا

المحبوس لا هم ، شعرت بالاختناق وكأن الهواء نفد من حولى ورغم محاولاتى إخفاء حالة الضيق والكدر التى انتابتنى عن زوجتى إلا أنها شعرت بى فطلبت منى أن أعود لمصحفى وأقرأ بضع آيات من القرآن لعل الله يخفف عنى ففعلت وقرأت واسترحت .))

عندما أتذكر تلك الأيام وأسترجع أحداثها أشعر وكأنها كانت حلما من الأحلام ، وكأننى كنت بين اليقظة والمنام .. أحقا كان ما كان و حدث ما حدث ؟ أفى تلك الحياة عشت ما سلف أم أننى كنت آنذاك فى زمن آخر وفى دنيا أخرى ؟ ولكنى أفيء إلى يقظة فتحدثنى نفسى أن أغلق صفحات كراستى ، فاستعادة الأحداث وإن كانت لها قيمتها إلا أنها تنكأ جراحا وتستعيد مواجع أرقتنى وأسالت مدامعى ..تلك المواجع التى أردتها أن تذهب أدراج النسيان .. ولكن وكأن تلك الصفحات التى أردت وأدها والتى تحتوى على تاريخ كاد ينزوى ، ترفض أن تنزوى ، وها أنذا أعود إليها مرة أخرى فأجدنى أمام ذلك الحدث الذى أفردت له جزءاً فى الربع الأخير من تلك الكراسة .

((فى اليوم التالى انعقد اجتماع للجمعية العمومية لمحامى الإخوان .. يحضر فى هذه اللجنة رؤساء المكاتب الإدارية لمحامى الإخوان بالمحافظات وأعضاء لجنة السبعة المنوط بها إدارة المهنة .. جلسنا جميعا فى مكتب بهاء عبد الرحمن بمنطقة عابدين وكانت بنود الاجتماع تدور حول وجوب انتخاب لجنة من بيننا تدير أزمة حبس مختار نوح وإخوانه من المهنيين ولها أيضا كامل الصلاحيات فى إدارة انتخابات المحامين بحسب أن الانتخابات تعتبر جزءاً من الأزمة وسببا فى حبس مختار ومن معه ، كنت فى هذا اليوم أبدو شارد الذهن وفى الحقيقة أننى كنت أكاد لا أسمع كلمة واحدة مما قيلت ، حتى أننى لم أشترك فى الحوار الذى كان يدور بين الإخوة والتزمت الصمت طوال الجلسة وقد أثار صمتى دهشة أحمد ربيع وظن أننى مريض ولكننى كنت فى أشد الحاجة إلى الانكفاء على نفسى وتدوير الأفكار فى عقلى .. كنت أمارس مع نفسى عصفا فكريا .. وحين انتبهت وعدت من خلوتى النفسية وجدت الانتخابات قد بدأت ورغم أننى أعطيت صوتى لأحمد ربيع إلا أن أحمد أعطانى صوته وكانت النتيجة هى انتخابى بالإجماع - عدا صوتى - رئيسا للجنة وانتخاب عدد من الأعضاء معى هم أحمد ربيع وإبراهيم بكرى وبهاء عبد الرحمن وجمال حنفى ممثلين للقاهرة وعدد آخر من الإخوة ممثلين

لبعض المحافظات .

وبعد أيام من هذا اللقاء كان من المقدر أن نذهب للقاء المستشار مأمون الهضيبى لمناقشة خطة الانتخابات الجديدة وكنت قد تخلفت عن هذا اللقاء إلا أن الإخوة الذين حضروا وعلى رأسهم أحمد ربيع أخبرونى أنه حدثت مشادة بين أحمد والمستشار الهضيبى وكان سبب هذه المشادة هو رغبة المستشار فى ترشيح الأستاذ أحمد سيف الإسلام حسن البنا لعضوية مجلس النقابة وتغيير الخطة من المشاركة إلى المغالبة وقد اعترض أحمد لأن أحمد سيف لم يحصل فى الانتخابات الداخلية بيننا إلا على صوت واحد ، وبعد هذا اللقاء صدر قرار من المستشار الهضيبى بعزل أحمد من رئاسة القسم وتعيين محمد طوسون بدلا منه والاكتفاء بعضوية أحمد فى لجنة الانتخابات .. وأصبح طوسون رئيسا للقسم .. وصرت أنا مسئولا عن إدارة لجنة الأزمة ولجنة الانتخابات .

بدأنا عملنا فى لجنة إدارة الأزمة .. كنا مجموعة من الرفاق .. اجتمعنا على عمل لله .. من أجل نصرة مظلوم .. تعاهدنا من أول لحظة أن يكون الإخلاص سبيلنا والمحبة زادنا والإخوة فى الله هى صلتنا .. وكان أول تحرك لنا هو السعى لإقامة علاقات طيبة مع الإعلاميين والصحفيين وبالفعل تعرفت على عدد كبير من الصحفيين من الذين كانوا على خلاف مع الإخوان ولكنى وجدتهم من أفضل الناس خلقا بعد أن كنت أظن أنهم أكبر خصوم للحل الإسلامى ، ومن عجبى أننى لاحظت أن هؤلاء قد يكونون أكثر تدينا وإيمانا من بعض الإخوان المسلمين ، وكان أن أقمت صلات طيبة بالمسئولين فى إذاعة لندن وغيرهم من الإعلاميين من كافة التوجهات ، كان مظهرنا نحن أعضاء لجنة إدارة الأزمة شبيها بالمقاتلين فى معركة حربية .. واصلنا الليل بالنهار وتحركنا على كافة الأصعدة وقمنا بتحريك الرأى العام بقوة ناحية التعاطف مع قضية النقابيين المحبوسين والمحالين للقضاء العسكرى ، وفى سبيل تحركاتى الإعلامية قمت بتجهيز ملف كامل لكل أخ من المحبوسين يحتوى على السيرة الذاتية له وبهذه الملفات وببعض بيانات نارية عقدنا مؤتمرات صحفية لدعم القضية إعلاميا ... ولكن رغم كل ما بذلناه مازال مختار محبوسا يرسف فى أغلاله الكئيبة ، ومازال خالد بعيدا عن بيته وأهله ، وضاعت على إبراهيم الرشيدى فرصته فى العودة لعمله فى الخليج الذى

كان فى أجازة منه .))

أقفز على الصفحات وأطوى بعضها وأتجاهل عشرات الأحداث والتفصيلات إذ لو تركت نفسى لها لأفردت لها كتابا كاملا - وقد أفعل ذات يوم - فهى أحداث جديرة بالتسجيل والرصد والتحليل ، إلا أن آخر صفحات تلك الكراسة يستوقفنى منها ويشد نظرى تلك الفقرات .

((ليس هناك أشد وطأة على النفس من ظلم لا تستطيع دفعه ، وليس هناك أشد على الإنسان من تنكر له وقت محنته ، وفى المحنة ظهرت معادن الناس وانكشفت معادن الإخوة ، فى أحد اللقاءات همس بعض الإخوان فى أذنى أن أحدهم سجد لله شكرا حين تم القبض على مختار وخالد ، كان أحدهم هذا من أكثر الأشخاص حربا على إخوانه المحامين وفرحا حين تم فرض الحراسة على نقابتنا ، أما الشماتة فقد كانت بادية فى عيون البعض تكاد تخرج لنا لسانها ، وقد تقابلت مع الكثير من الإخوة الذين أعلم حسن طويتهم ولكن أحزننى منهم عدم المبالاة بما حدث وكأن من تم القبض عليهم لم يكونوا أخوة لهم .

اليوم كان قد انعقد اجتماع إخوانى لمناقشة بعض ترتيبات المحكمة العسكرية وكيفية مواجهتها وقد شق علي كلمة خرجت من فم الأخ أسامة محمود حين قال لى : أنت مهتم بشكل مبالغ فيه بموضوع حبس مختار وخالد .. يا ثروت يجب أن تعلم أن الحبس فى السجون هو معسكر من معسكرات الإخوان ولا ينبغى أبدا أن يشغلك بهذا الشكل .. نظرت إلى أسامة بخيبة أمل ولكننى لم أرد عليه .

عندما أتيحت الفرصة لزيارة الأخوة فى محبسهم فى سجن طرة لم أتركها فقد صرت الزائر الوحيد الذى يقوم بالزيارة كل يوم بحيث لم أفوت إلا أيام الجُمع والأجازات ، وكانت هذه الزيارات فرصة سانحة نتناقش فيها فى كل شيء يتعلق بالقضية سواء من حيث القانون أو من حيث السياسة ، وعندما تم تحديد الجلسة الأولى التى ستبدأ فيها المحاكمة قمنا بتوزيع أنفسنا - كمحامين - على الأخوة المتهمين وكان من نصيبى بطبيعة الحال عبء المرافعة عن مختار وخالد وإبراهيم الرشيدى ، أما رجائى عطية فقد اتفقنا معه على أن يترافع فى الشق العام للقضية .

فى أول جلسة من جلسات المحكمة العسكرية التى انعقدت هناك فى

صحراء الهايكستب كانت الإجراءات الخاصة بدخول المحامين والأهالى تسير على قدم وساق ، وكانت هناك حالة ارتباك وتدافع فقد كان من المقرر أن نقدم بطاقات تحقيق الشخصية على البوابة وننتظر إلى أن تأتى لنا حافلة تابعة

للقوات المسلحة فتقلنا إلى الداخل ، ونظرا لحالة الزحام الشديد فقد توقفت الحافلات ورفضت نقل هذه الأعداد الغفيرة إلا إذا سمح رئيس المحكمة بذلك ، وحين كنا ننتظر وصول موافقة رئيس المحكمة لمحت عن بعد الأستاذ محمد علوان وكان معه الدكتور توفيق الشاوى(١). فذهبت إليهما مرحبا ومن أسف أن معظم الحاضرين لم يعرف الدكتور توفيق ولكننى عرفته فقد سبق وأن ذهبنا إليه مع مختار فى الأيام الخوالى ثم بعد حبس مختار ذهبت إليه أستشيره وأستتبت منه الرأى السديد فى كيفية مواجهة هذه القضية .. ونظرا لأن الرجل كان قد اقترب من الثمانين فقد طلبت منه أن يجلس فى السيارة التى حضر فيها برفقة الأستاذ علوان ، وعندما طالت الإجراءات انصرف علوان والشاوى وقبل أن يودعانى طلب منى الدكتور الشاوى أن أذهب إليه فى بيته لأخبره بتفصيلات ما حدث فى الجلسات ووعدته بأننى سأتصل به لأحدد معه موعدا أذهب إليه فيه .))

وفى صفحة أخيرة من تلك الكراسة كانت هذه الفقرة .

((يسكن الدكتور توفيق الشاوى فى فيلته الأنيقة الرابضة على كورنيش النيل بالمعادى وإذا جلست فى حجرة الصالون فستجد الحائط يزدان بعدة صور لأشخاص لهم تاريخهم ، وكانت الصورة التى لفتت نظرى هى صورة علامة القانون المرحوم عبد الرزاق السنهورى .. كنت قد ذهبت للدكتور الشاوى وفقا لموعد اتفقنا عليه فى اتصال هاتفى وكنت قد استأذنته فى أن أصطحب معى فى هذا اللقاء الأخ أحمد ربيع وقد رحب الرجل أيما ترحيب .

---

١ -رحم الله الدكتور توفيق الشاوى وقد كان هذا الرجل أحد أفراد الرعيل الأول من الإخوان وكان قانونياً بارزاً وله العديد من المؤلفات القانونية والإسلامية وقد كتب فى فقه الشورى وفى الاقتصاد الإسلامى وهو أحد الذين ساهموا فى إنشاء منظمة المؤتمر الإسلامى وبنك فيصل الإسلامى وصاحب فكرة المدارس الإسلامية وقد أسس عشرات من هذه المدارس الإسلامية .. تزوج الشاوى فى بداية حياته بابنة العلامة القانوني د.عبدالرزاق السنهورى وظل حياته منافحاً عن أفكاره مدافعاً عما يعتقده.

وحين دخل الدكتور الشاوى علينا وجدنى أتطلع لصورة السنهورى فقال لى بعد أن رحب بنا : هل تعلم أن السنهورى رحمه الله حصل على دكتوراه فى فقه الخلافة ، وكان قبلها قد حصل على دكتوراه فى القيود التعاقدية على حرية العمل .. فقلت له : أنا أعلم عن رسالته فى فقه الخلافة وأظن أنه كتبها بعد إلغاء دولة الخلافة الإسلامية وكانت رسالة رائدة .

وتدخل أحمد ربيع فى الحوار وذكر أنه بهذه المثابة تكون هناك علاقة فكرية بين الشهيد حسن البنا والمرحوم السنهورى فهذا أنشأ تنظيما ليستعيد الخلافة وذاك حصل على دكتوراه فى فقه الخلافة .

وبعد أن شرحت للدكتور الشاوى تفصيلات قضية مختار التى أطلق عليها الإعلام " قضية النقابيين " وحكيت له عن مرافعة الأستاذ رجائى عطية والحادث الذى وقع له بعد مرافعته والشكوك التى دارت حول هذا الحادث وزيارتى له فى المستشفى حيث التقيت هناك بشخصيات سياسية كبيرة ، وحكيت له أيضا عن تفصيلات مرافعتي عن مختار وخالد وإبراهيم الرشيدى التى استمرت أكثر من ثلاث ساعات وتحاورت معه فى الدفوع القانونية التى أبديتها أثناء المرافعة وطلبت البراءة بناء عليها .. كما حكى أحمد ربيع عن مرافعته التى أبداها عن بعض الإخوة ودفوعه القانونية ، وأثناء حديث أحمد تطرق إلى الخلاف الذى كان قد نشب بينه وبين المستشار الهضيبى وأسهب فى أن المستشار الهضيبى أراد أن يتراجع عن الشورى التى أجريناها بخصوص عدم ترشيح أحمد سيف الإسلام حسن البنا وكانت حجته وقياسه فى ذلك هو موقف الرسول صلى الله عليه وسلم عندما رفض قتل المنافقين وقال (حتى لا يقال إن محمدا يقتل أصحابه) فقال له أحمد (إن هذا قياسا فاسدا لأن القياس الصحيح هو قول الرسول صلى الله عليه وسلم (لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها) واسترسل أحمد شارحا غضبة المستشار الهضيبى تجاهه والآثار التى ترتبت عليها ، وهنا قال الدكتور توفيق الشاوى : رشد أى تنظيم أو جماعة أو مجتمع إنما يُستمد من عدة قيم هى الحرية والشورى والعدالة والمساواة واقرأ إن أردت ما كتبه أخى الدكتور سليم العوا عن هذه القيم فى كتابه القيم فى النظام السياسى للدولة

الإسلامية ، وليس عندى شك أن قياس المستشار هنا قياسا فاسدا وقياسك هو الأصح وأنا أرى أن جماعة الإخوان تفقد بعض رشدها حين تضرب صفحا عن الشورى والمساواة وقد عرفت تفصيلات الخلاف الذى شجر بينهم وبين مجموعة حزب الوسط وقد أفزعنى رد فعل الجماعة غير المبرر .. جلس معى هنا أبو العلا ماضى ومعه مجموعة من إخوانه وقد وجدت فيهم نجابة وعمقا ومن الخطأ أن تتسرب هذه الكفاءات من الجماعة .. للأسف جماعة الإخوان التى أحببناها تفقد رشدها شيئا فشيئا .

كانت هذه الكلمات غريبة على أذنى فلأول مرة أسمع نقدا للجماعة من رجل له قيمته الفكرية والتاريخية فى الجماعة وفى العمل الإسلامى ، وحين قلت له : إن الإخوان حركة ربانية وأن الله سيحميها .. قال بهدوء : الإسلام دين ربانى ولكن الأفراد بشر يصيبون ويخطئون .. الجماعة قد تزول ويخبو أثرها إن هى خالفت السنن الكونية .. ليس معنى أنها ترفع شعارات إسلامية أنها تكون قد حصلت على قداسة .. جماعة الإخوان ليست مقدسة .

وإذ شعرت أن الدكتور ظهر عليه الإرهاق قمنا بتوديعه وانصرفنا وعندما كنا فى السيارة قلت لأحمد : هذا كلام لم نسمعه من أحد من الإخوان من قبل وهو يستأهل المناقشة .. فقال أحمد : والله لقد صدق الرجل يبدو أن جماعة الإخوان تفقد رشدها شيئا فشيئا ويبدو أننا سنرى أياما حالكة .. المهم أن تنتهى المحاكمات العسكرية على خير .. هل ترى أنها ستنتهى على خير ؟ قلت له : يبدو أننا ننتظر مفاجأة .))

وحين أمسكت الكراسة لأضعها فى الخزانة تذكرت المفاجآت التى توالت علينا حينها .

الفصل الخامس

وراء الأكمة

«هناك من لا يستطيع أن يكون إلا نفسه ، يمارس قناعاته حتي ولو خاصم من أجلها الدنيا ، وهناك من يستطيع أن يكون غير نفسه يمارس طموحاته حتي ولو صادق من أجلها الشيطان ، وكلاهما ممقوت ومرضي عنه في آن واحد ، فالأول ممقوت من الناس ومرضي عنه من الحق والثاني ممقوت من الحق ومرضي عنه من الناس».

إنتهت المرافعات فى القضية العسكرية للنقابيين ، وقدم كل واحد من المحامين ما فى جعبته من الأسانيد والدفوع القانونية ، إلا أن وجوه المتهمين التى رسم القلق تجاعيده عليها كانت تشى بأن الأحكام ستصدر فى غير صالحهم ، ورغم الوعود الكثيرة التى قطعها المحامى الكبير رجائى عطية على نفسه مؤكدا أن مختار نوح ومعه خالد بدوى وثلة أخرى من المتهمين سيحصلون بالتأكيد على البراءة وأن باقى الأحكام ستكون مخففة لا ضير منها إلا أن أحدا لم يصدقه ! فقد أيقنوا جميعا أن الأستاذ رجائى فشل فى الوصول إلى قرار سياسى بهذا الشأن وأنه إنما يمد حبل الرجاء طمعا فى استمرار مؤازرة الإخوان له فى المعركة الانتخابية ،كانت التوقعات التى خرجت من داخل السجن من قيادات الإخوان المحبوسين تؤكد أن الأحكام ستتراوح بين ثلاث وخمس سنوات وأن هناك من سيحصل على البراءة وقد أجمعوا على أن أصحاب البراءة هم إبراهيم الرشيدى ومحمد سعد عليوة ومن الممكن أن يضاف إليهم أحمد محمود حسن وأحمد أبو الأنوار ، كانت تلك التوقعات سببها أن هؤلاء ليست لهم أهمية تنظيمية ولم يكن لهم تأثير حركى ولذلك لن يكون هناك أى أثر إذا ما حصلوا على البراءة فضلا عن أن هذه القضايا لابد أن يحصل بعض المتهمين فيها على البراءة ولم يكن هناك غير هؤلاء ليتم إطلاق سراحهم .

وفى محاولة منى لاستقصاء ما يمكن أن يتساقط من أخبار ذهبت ومعى أحمد ربيع وإبراهيم بكرى إلى مكتب الأستاذ رجائى عطية

نستمطر منه الأخبار ونستشرف وجهه لعلنا نعرف من خلال قراءة الوجوه ما تخفى الصدور ، إلا أن الإحباط كان باديا على قسمات وجه المحامى الكبير .. وببراعته المعهودة أخفى إحباطه ببضع كلمات مبتسمات

مبتسرات ووضع على وجهه ستارة الاطمئنان التى أظهرت أكثر مما أخفت ، وعندما خرجنا من اللقاء استقبلتنا عاصفة ترابية من عواصف خريف القاهرة الذى كان لا يزال يافعا يبسط سيطرته ونفوذه على السماء والأرض فيحيلهما إلى كتلة رمادية جرداء ، ويبدو أن العاصفة لم تهب من الشمال أو الشرق أو الجنوب إنما هبت من أفئدتنا وخرجت من مشاعرنا الثائرة الملتهبة بعد أن وقع فى روعنا أن الريح ستأتى بما لا يسر السفن وأن وراء الأكمة ما وراءها . وتحددت جلسة النطق بالحكم وهناك فى منطقة الهايكستب حيث الصحراء القاحلة وحيث مقر المحاكمة تقابلت منذ الصباح الباكر مع بعض الأهالى الذين تكبدوا مشقة الطريق خلال أشهر عديدة وحان الوقت الذى تصوروا فيه أنهم سيقطفون ثمار مشقتهم .لا ريب أن الألم فتت كبدى وشق قلبى إذ وجدت بعض زوجات المتهمين يتحدثن عن أن بناتهن الصغار قاموا بتعليق الزينة فى بيوتهن ونثر الورود انتظارا لخروج بعض من تسربت الأخبار بحتمية حصوله على البراءة ، وأيقنت أن الإنسان يظل دائما متعلقا بحبل الأمل مشدودا إلى واحة الرجاء لا يحيد عنها قيد أنملة حتى أنه ليصنع من أمله قصرا مشيدا شامخا فإذا طلعت الحقيقة إذا بالأمل سراب وإذا بالرجاء حسرة وإذا بالقصر تذروه رياح الواقع ، ولكن الواحد منا لا ينى يمسك حبل الأمل من جديد ويتعلق بأهداب الرجاء ويسكن فى قصر التمنى إذ لولا الأمل لسكن الإنسان حتما فى باطن الأرض وهجر سطحها .

خرج عم عيد كاتب الجلسة مصطنعا كسوف البال ليخبرنى أن المحكمة أرجأت النطق بالحكم لجلسة أخرى هى يوم التاسع عشر من نوفمبر وعندما أخبرت الأهالى والمحامين الموجودين بالتاريخ حتى انصرف الجميع وهم يمسكون بيد خيط الترقب والقلق إلا أنهم فى ذات الوقت يقبضون باليد الأخرى على حبل الرجاء ، وسمعت الزوجات وهن يتحدثن عن إصرارهن على ترك الزينة والورود فى أماكنها فى بيوتهن إلى أن يحين الموعد الجديد للحكم .

★★★

كان عام ٢٠٠٠ الميلادى قد استعد لمغادرة مداره حيث سيذهب إلى غير رجعة ولم يكن قد تبقى منه إلا عشرة أيام من نوفمبر وديسمبر بأكمله ، أما العام الهجرى ١٤٢١ فقد كان يسعى حثيثا للوصول إلى رمضان ولم يكن قد أدركه بعد ، حينذاك أصدرت المحكمة العسكرية أحكامها التى كانت صدمة

لكثيرين رغم أنها كانت متوقعة .
امتنعت فى هذا اليوم عن الذهاب للمحكمة العسكرية فقد كنت موقنا بصدور أحكام عقابية وذهبت إلى محكمة مصر الجديدة وقبيل الظهر هاتفنى عبد المنعم عبد المقصود ليخبرنى أن الأحكام صدرت فى معظمها بالإدانة وأن ثلاث سنوات من الحبس شداد غلاظ كانت من نصيب مختار نوح وخالد بدوى ورافقهم فى الثلاث سنوات كل من الدكتور محمد بشر ومدحت الحداد وعبد الله زين العابدين وهشام الصولى وسيد هيكل وأحمد شوقى عماشة وأحمد عبد الرحيم وعاطف السمرى وإبراهيم السيد حسين وعبده البردويل أما إبراهيم الرشيدى ومعه أربعة هم أحمد محمود حسن وأحمد أبو الأنوار ومحمد سعد عليوة وعلى عبد الرحيم فقد نالوا البراءة ... وأن هناك من طالته خمس سنوات هم الدكتور محمد بديع وسعد زغلول العشماوى وأحمد الحلوانى ، وسرعان ما توالت على هاتفى المحادثات التليفونية من إخوان مدينة نصر أو غيرها من المناطق ومن أهالى المتهمين الذين حالت ظروفهم بينهم وبين الذهاب للمحكمة لمعرفة تفصيلات الأحكام وكان ما يثير العجب أن الكل كان يستقبل الحكم وهو غير مصدق ..كأنما صدقت الأفئدة أن الكل سيخرج من هذه المحاكمة بلا إدانة ، وكان ظنهم أنه إذا حدث وكانت هناك أحكام بالإدانة فإنها لن تتجاوز العام بما يعنى خروج المتهمين من محبسهم لأنهم قضوا بالفعل فى السجن عاما وازدادوا شهرا .
استقبلت الحكم بفتور ظاهرى إلا أننى عقدت العزم على تغيير الخريطة الانتخابية لنقابة المحامين.

مباحث أمن الدعوة

استقبلنا بدايات عام ٢٠٠١ وكانت زياراتى للمحبوسين من الإخوان قد تباعدت وأصبحت تقريبا مرة أو مرتين فى الشهر ، فما يتاح للمحبوس احتياطيا قد لا يتاح للصادر ضده الحكم العقابى وإذا كان من حق المحامى أن يزور موكله أثناء المحاكمة بشكل دورى مستمر لإطلاعه على خطة الدفاع ومناقشته فى تفصيلاتها إلا أن هذا الحق يتبخر فور صدور الحكم وتصبح زيارة المحامى لموكله خاضعة للوائح تكبح جماح هذه الزيارات ، فبدت الأحوال داخل السجن - مع قلة الزيارات التى كانت تبعث قدرا من الحركة والحيوية - وكأن قاطنيها هم فريق من العابدين داخل صومعة هادئة ساكنة

انقطعت علاقاتهم الدنيوية بمن هم خارج الصومعة .

أما خارج السجن فقد بدت الصورة مختلفة تمام الاختلاف فقد كان الكل يجرى على قدم وساق فى سباق انتخابات نقابة المحامين وكأننا فى ماراثون لا ينتهى أو فى مضمار خيل يقطع أنفاس المتسابقين ، لم يكن المحامون وحدهم منشغلين بالانتخابات ولكن مصر كلها كانت تترقب وتنتظر المولود الجديد حيث كان فى ظن البعض أن المخاض سيسفر عن مجلس قومى يبتعد فيه الإخوان عن سدة المجلس إلا أن البعض الآخر كان على يقين من أن قطار الإخوان مازال يسير بقوة الدفع السابقة وأنه سينجح فى الانتخابات لا محالة ، إلا أن التكهنات كلها تقريبا بخصوص منصب النقيب كانت تصب فى مصلحة رجائى عطية ، فها هو ذا المحامى الكبير يحظى بتأييد الإخوان المطلق رغم صدور أحكام بالإدانة فى قضية النقابيين ، كما أنه فى ذات الوقت يحظى بتأييد الحكومة التى دفعته إلى هذه الانتخابات أو بالأحرى وافقته على فكرة خوضها ، وفوق هذا وذاك فإنه حصد تأييدا واسعا من العديد من المحامين من شتى الفصائل والتوجهات خلال جولاته الانتخابية ، وكاد قمره أن يكتمل يوم الانتخابات ، وفى الناحية الأخرى كان سامح عاشور يحاول لاهثا أن يلحق برجائى عطية ويقترب من موكبه إلا أن المعادلة بدت شديدة الصعوبة رغم أن هناك دائرة من دوائر الحكم راهنت على الفتى عاشور ورأت أنه من الممكن أن يقوم بلجم حصان الإخوان فى النقابة بسبب العداء التاريخى بينهما فى حين أن رجائى لا يحمل هذا التاريخ من العداء فضلا عن أنه كان محاميهم الأثير فى قضية النقابيين وهناك تخوف إن نجح أن يضطر إلى سداد فاتورة نجاحه للإخوان مما يمكنهم من أروقة النقابة ويساعدهم على السيطرة على قرارها .

فى خضم تلك الصورة المشحونة بالمنافسة الضارية المفعمة بالمشاعر المتناقضة حدثنى تليفونيا عصام سلطان المحامى الذى كان فى يوم من الأيام أحد قيادات الإخوان ثم شارك فى ثورة فكرية وحركية على قيادات الإخوان ومنهجهم الحركى وأسهم مساهمة مؤثرة فى توطيد دعائم حزب الوسط فى المجتمع السياسى ولذلك نال نقمة الإخوان إذ يكفى أنه يمثل عنصرا انشقاقيا ومشروعا فكريا منافسا لحركة الإخوان ومزاحما لها فى وسطيتها .

استفهم مني عصام في المحادثة التليفونية عن إمكانية دعم سامح عاشور في انتخابات نقابة المحامين ضد رجائي عطية بحسب أن رجائي تنكب عن وعده الذي قطعه على نفسه من قبل ، وبلا تردد وافقت على هذا الطلب وبعد دقائق معدودات عاود سلطان الاتصال حيث كان قد ضرب موعدا مع سامح عاشور في نفس اليوم في جروبي عدلي على أن يكون اللقاء في تمام الساعة العاشرة ليلا ، كانت الميزة التي تميز جروبي عدلي أنه بدءاً من الساعة العاشرة ليلا يكون قليل الرواد خاصة وأننا في فصل الشتاء مما يعطي لهذا اللقاء قدرا من السرية والخصوصية .

وفي الموعد المضروب سبقنا عصام سلطان إلى المكان أما أنا فقد ذهبت بعده بهنيهة وكان في رفقتي عاطف عواد الذي كان مازال ملتحما بالإخوان لم تنفصم عراه عنهم بعد رغم وسطيته ، وخالد شقير الذي كان مازال في قلب الإخوان عضوا عاملا ومسئولا عن شُعبة من شُعب مصر الجديدة ، أما سامح عاشور فقد حضر بعدنا مباشرة ومعه المحامي الناصري البورسعيدي ياسر حسن والذي كان مرشحا للعضوية في هذه الانتخابات ، والحق أن ياسر حسن كان هو كما علمت فيما بعد فاتحة الاتفاق إذ كان زميلا لعصام سلطان في الجامعة وعضوا معه في اتحاد الطلاب ، وقد سمحت أواصر الصداقة فيما بينهما أن يتحدثا سويا بشأن الانتخابات المرتقبة وتطور النقاش فيما بينهما حتى قام ياسر حسن بالتنسيق بين عصام سلطان وسامح عاشور وكان من ناتج هذا التنسيق هذا اللقاء الذي ترتب عليه الانقلاب الكبير ، ذلك الانقلاب الذي دخل سامح بمقتضاه إلى التاريخ بعد أن كاد يخرج من صفحات الواقع النقابي والسياسي .

استمرت الجلسة ساعة من الزمن وقد كنت حريصا غاية الحرص بعد اللقاء على تدوين أحداثه وتفصيلاته ودقائقه في مفكرتي الخاصة حتى لا تقع أي شاردة من شوارده من ذاكرتي المثقلة بالأحداث أو من ذاكرة الحاضرين ، وفي اللقاء عرض سامح عاشور علينا عروضا كثيرة لكي نوافق على دعمه ، وكان من عروضه أن يجعلني بعد نجاحه عضوا بالأمانة العامة لاتحاد المحامين العرب ويجعل عاطف عواد المسئول الفعلي عن لجنة الشباب بالنقابة !! وعندما انهالت عروض سامح عاشور بدأب ذلك الغريق الذي وجد أمامه فجأة طوق نجاة بعد أن أيقن بالهلاك قلت له بوضوح : دعك يا عزيزي من

تلك الهدايا فما أنت بابا نويل وما نحن زمرة من الأطفال كل ما فى الأمر أننا قد نوافق على دعمك دون مساومة أو مقايضة ولكننا نحتاج بعض الإيضاحات سنطرحها عليك وستجيب عليها فإن راقتنا إيضاحاتك سندعمك وإلا فلكل منا طريقه ، وكان من البديهى أن يسألنى عاشور عن كنه تلك الإيضاحات ولكننى أرجأته إلى جلسة أخرى حددت له موعدها ومكانها .

وكان اللقاء الثانى بعد ثلاث ليال فى مكتب خالد شقير بمصر الجديدة وقد غاب عن هذا اللقاء صديق مقرب منى ومقرب من الإخوان وهو عبد السلام دياب دون سبب ـ رغم أنه كان أحد الذين قاموا بالتنسيق بينى وبين سامح عاشور ـ إلا أنه ضم بعض شخصيات من الإخوان الذين كانوا مع مختار نوح فى البدايات وكانوا من أكثر الشخصيات تأثيرا فى استمرار مسيرة الإخوان بنقابة المحامين وهم أحمد ربيع غزالى ، ومصطفى زهران صاحب الصيت الذائع فى العمل النقابى وأحد أشهر الشخصيات النقابية الإخوانية ، فضلا عن خالد شقير صاحب المكتب وعاطف عواد وعصام سلطان الإخوانى السابق وأحد مؤسسى حزب الوسط ، ومن الجيل الذى جاء عقب هؤلاء ضم اللقاء محمد عبد الفتاح المحامى الذى ينتمى إلى إخوان منطقة الشرابية وكان من القلائل فى الإخوان ممن يحفظون القرآن الكريم وكانت له جلسات يقوم فيها بتدريس أحكام تلاوة القرآن للإخوان وكان فوق هذا خطيبا لمساجد عديدة يسيطر عليها الإخوان الأمر الذى أعطى له نفوذا نفسيا ودينيا على قطاعات عديدة من المحامين الإخوان ، وكان فى اللقاء أيضا أحمد حسن جمعة المحامى الإخوانى والذى ينتمى إلى منطقة مصر الجديدة وهو شخصية حركية وفاعلة ومن الشخصيات صاحبة التأثير فى أوساط شباب الإخوان إلا أنه ترك الإخوان بعد هذا اللقاء بعامين إلى غير رجعة ، وجلس مستمعا فى اللقاء أحد المحامين العاملين فى مكتب خالد شقير اسمه عليش وقد كان ينتمى بشكل هامشى للإخوان فقد كانت رتبته الإخوانية هى " مؤيد " ، وضم اللقاء أيضا ثلاثة من شباب الإخوان من المحامين الذين كانوا يحملون فى نفوسهم وقلوبهم اعتراضات جمة على المنهج السياسى لجماعة الإخوان وموقفهم السلبى من القضية العسكرية التى ذهب نوح وآخرون ضحيتها ، وكانت كلماتهم التى صدحوا بها فى وجه بعض قيادات الإخوان وقتها هى : هل ذهب مختار نوح ومن معه ضحية المحكمة العسكرية

أم أنهم ذهبوا جميعهم ضحية الإخوان ؟! ولأن لا شيء يبقى على حاله فقد عاد هؤلاء الشباب بعد ذلك إلى حضن الجماعة بعد أن تم تشديد النكير عليهم وتضييق الخناق على حركتهم ... وكل نفس لها وسعها .

ظل اللقاء مع سامح عاشور منعقدا لثلاث ساعات وكانت بدايته بضع كلمات قلتها عن سبب اللقاء وأهدافه واعتراضات البعض منا على شخص سامح عاشور وتاريخه وريبتنا من وعوده التي يوزعها علينا وعلى آخرين وشكوكنا حول قدراته النقابية ، ثم تركت الحديث للحاضرين فانهالَ عليه مصطفى زهران وأحمد ربيع بوابل من الاتهامات منها أنه كان في تاريخه كله معاديا للإخوان وحجر عثرة في طريقها ،وأبدى ربيع وزهران خشيتهما من أن يدير عاشور النقابة بعقلية ديكتاتور ويد مستبد ـ كما قال أحمد ربيع ـ ودافع عاشور عن نفسه ورفض اتهامه بمعاداة الإخوان بصورة مطلقة وإن لم ينكر اختلافه مع فريق منهم إلا أنه أبدى استعداده للتعاون المثمر مع أى فصيل مستنير يتبنى خطابا عاقلا ويقبل التعاون مع الآخر وأنه من أجل هذا يمد يده لفريق نوح الذى ذكر أنه أعقل الإسلاميين قاطبة ، أما عن قدراته النقابية فقال وهو يتحسس الكلمات : يجب عليكم أن تمنحونى الفرصة لتحكموا على أدائى أولا ، ثم دخل عاشور سريعا إلى منطقة الوعود وكاد أن يقسم أنه إن نجح نقيبا فسيعطى المساحة الأكبر فى لجنة الشريعة الإسلامية لمصطفى زهران وأحمد ربيع وسيوافقهما على كل المشروعات النقابية التى سيقدمونها سواء كانت معسكرات أو رحلات أو ندوات ، وحاول فى عباراته أن يكون لينا ناعما كألين ما تكون الليونة إلا أن زهران وأحمد ربيع ظلا على هجومهما الضارى رغم كثرة وعود عاشور وتنوعها ، والحق أنها كانت مواجهة حادة أخرج فيها كل واحد من فريق الإخوان ما فى قلبه إلا أن سامح راوغ وناور ابتغاء كسب تأييد هذا الفريق ، وكان عصام سلطان وعاطف عواد يتدخلان فى كثير من الأحايين لترطيب الأجواء المشتعلة ، وانتهى الجزء الأول من اللقاء على خير حيث بدأ فريقنا ـ وفقا لاتفاق مسبق بيننا ـ يطرح عبارات مطمئنة لسامح ، وهنا استطاع الرجل أن يلتقط أنفاسه بهدوء ، وكان الجزء الثانى من اللقاء يدور حول كيفية دعم عاشور، وليس من شك أن الصعوبات الجمة التى كانت تواجه المساجين من الإخوان فى محبسهم دفعتنى إلى استثمار رغبة عاشور فى النجاح كنقيب فى تذليل تلك الصعوبات

عن طريق علاقات عاشور المتعددة فكان أن تحدثت عن ضرورة أن يقوم عاشور بدعم مختار نوح في سجنه بكافة الوسائل وطلبت منه أن يستخدم صلته بالأمن كي يتم توفير الراحة لنوح والذين معه فى السجن ، ثم أهمية أن يتم إظهار هذا الدعم بعد ذلك في كافة الأجهزة الإعلامية ونشرها على نطاق واسع في أوساط المحامين ، وكان مما قلته وقتها : إن هذا التصرف من عاشور سيساعدنا جميعا على اجتلاب الكثير من الأصوات الإخوانية وتوجيهها ناحيتك يا أستاذ سامح فضلا عن أنه سيساعدنا على جر قاطرة المتعاطفين مع الإخوان والمتحمسين لنوح وتاريخه النقابي إلى اتجاهك وبغير هذا لن نستطيع أن نحرك كتلة أصوات الإخوان الجليدية ولو بمقدار خردلة ، كما أننا لن نستطيع اجتذاب أصوات المتعاطفين التى من شأنها وحدها أن تغير نتيجة الانتخابات حتما إلا بهذه الوسيلة .

لمعت عين عاشور من الفرحة ووعد بأن يقدم لنوح والآخرين في محبسهم ما تتحدث به الركبان ، وانتهى اللقاء بعد أن اتفقنا على التواصل عبر الهاتف وأن ما لا يجب الإفصاح عنه عن طريق الهاتف سيكون توصيله عن طريق عبد السلام دياب الغائب عن اللقاء بغير عذر ودون سبب ظاهرى رغم أننى علمت وقت اللقاء أن دياب كان مع عاشور في لقاء ما قبل حضوره إلينا ثم اعتذر له عن الحضور معه !! .

ورغم أن اللقاء انتهى وفقا لما نصبو إليه إلا أن قلبى لم يكن مستريحا ، فقد أحسست أن هناك شيئا ما يدور فى الخفاء لا أعلمه ولا أدرى ما هو ، لا شك أن غياب عبد السلام دياب عن اللقاء أصابنى بالدهشة ذلك أنه كان أكبر المتحمسين للاتفاق مع عاشور وقد كان غيابه مثيرا للحنق والغيظ حتى لعاشور نفسه ، كما أنه لم يكن فى الترتيب أن يحضر معنا الأخ عليش المحامى الإخوانى الذى يعمل بمكتب شقير وكان أثناء جلوسه يتحسس بين الفينة والفينة جيوب الجاكيت الذى يرتديه وكأنه يضع فيه شيئا ثمينا .. ورغم أننى طردت الهواجس التى انتابتنى إلا أن هواجسى لم تتوقع أبدا أن يكون اللقاء بكامله مسجلا بالصوت ، لم يدر بخلدى أن عليش كان جاسوسا إخوانيا رصد اللقاء وسجله ثم ذهب بالتسجيل إلى محمد طوسون ، وكان هناك في الإخوان من صنع جهازا أمنيا يضارع مباحث أمن الدولة هو مباحث أمن الدعوة .

وقر في قلبي أن أخفي خبر تأييد مجموعتنا لعاشور عن مختار نوح ومجموعة الإخوة المحبوسين معه ، فمن ناحية خشيت أن يقوم نوح بالتأثير على من هم معي ليلزمهم أدبيا بعكس اتجاهي ، ومن ناحية أخرى خشيت مغبة هذا التأييد على مختار نوح فيسحب منه رصيده المتبقي داخل الإخوان ، ونقلت لأحمد ربيع ما وقر في قلبي فصدقني على رأيي واتفقنا معاً على كتم خبر هذا المشروع عن جميع الإخوة المسجونين ، ولكن ما تم كتمه عن من هم في داخل السجون سرعان ما تسرب إلى من هم في قيادات التنظيم .

فوجئت عصر اليوم التالي للقاء سامح بأحد الإخوة من المحامين من منطقة شرق القاهرة يحضر إليّ في مكتبي يطلبني حثيثا وكان أنفاسه تكاد تتقطع وأخذ يلومني ويعاتبني عن ذلك الذي وصل إليهم فوقع عليهم - كما قال - وقع الصاعقة ، واستطرد حزينا بأن هناك من قص أثر لقائي بسامح وتنصت عليه وسجل - عن طريق جهاز التسجيل - تفصيلات كل شاردة وواردة فيه وحملها حملا إلى أذن محمد طوسون الذي يزمع توصيلها إلى قيادات الإخوان إلا إذا ذهبت إليه مقدما فروض الولاء والطاعة ، وكان مما قاله أن ما حدث مني يدخل في باب خيانة القرار الإخواني وأن من قام بالتجسس قام بعمل مجيد للدفاع عن الدعوة ضد أعداء الدعوة إذ أن عملنا يصنف دعويا بأنه إعلان بالعداء لا يقبل إلا الإقرار به والتطهر من خطاياه بالتوبة عند القيادات الإخوانية ، وأضاف منهيا الحوار من جانبه أن ذلك الجاسوس قصاص الأثر - الذي رفض ذكر اسمه لي - فتح هاتفه المحمول في خط ساخن مع طوسون ليسمع ذلك الأخير في بث مباشر كل جوانب الحوار وأن طوسون هاله ما سمعه وأنه من هول هذا الاتفاق عقد العزم على أمور يصعب توقع نتائجها لأن فريقنا - كما قال الأخ - بما فعله قد شق عصا الطاعة ، ورغم أن ما قاله لي ذلك الأخ بعث في نفسي مساحة رمادية من الحزن المغلف بالغضب من أولئك الذين يستحلون الحرام ويتجسسون ويرتكبون المعاصي وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا بل وفي ظنهم أنهم يتقربون لله بمعصيتهم هذه التي يرونها كأنها أم الطاعات لأنها تحافظ على كيان التنظيم !! الذي أصبح عندهم مساويا للإسلام وأكاد أسمعهم وهم يدندنون ليل نهار " أن المحافظة على التنظيم محافظة الإسلام لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب " .

لم أرد على الأخ الذى كان حريصا فى ظاهره على أن يعود بى إلى حظيرة الطاعة ، ولم أعقب إلا بقولى (جزاك الله خيرا) ثم ختمتُ بإيماءة خفيفة وابتسامة حانقة انطلقت من حشاشات مشاعرى التى أنبأتنى بأن ما يحدث من الإخوان هو علامة فارقة في تاريخهم فقد انقلبوا من جماعة دعوية إلى مؤسسة أمنية تضارع الجستابو وأن هذا الانقلاب انطلق من قلب الجماعة فقلبها ، وما سُمى القلب قلبا إلا لأنه يتقلب .

وعلى مدار الأيام السابقة على الانتخابات في مرحلتها الأولى وجدت أمرا عجبا ، فقد أخذ عدد من الإخوان المحامين ممن لم تكن لهم سابق علاقة قوية بـ "محمد طوسون والذين معه" يترددون على مكتبى بشكل مستمر يطلبون منى النصح ويسألوننى عن أشياء متعلقة بالانتخابات ويجادلوننى في حق الإخوان فى خوض الانتخابات مثلهم مثل أى فصيل سياسى ، وكانت المناقشات تدور بيننا لساعات وأذكر أن هذه التجربة أهدت لى بعض الأفكار التى لم تكن قد تبلورت في صورتها النهائية بعد ومن هذه الأفكار قلت لأحد الإخوة فى زيارة من تلكم الزيارات حيث جاء يسألنى النصيحة : لا يجوز لجماعة دعوية مثل جماعة الإخوان أن تقدم العمل السياسى التنافسى على العمل الدعوى والعمل الإصلاحى إذ أن العمل السياسى التنافسى يتناقض مع تركيبة الجماعة الدعوية ويتضاد معها وقد ظهر فى العقود الأخيرة أن الجماعة تقدم العمل السياسى التنافسى على العمل الدعوى وتهتم به أيما اهتمام .

فقال وهو يتصنع عدم الفهم : كيف ذلك أنا أرى أننا نقدم الدعوة على أى شيء أخر

قاطعته قائلا : صبرا يا أخى .. دلائل ما أقول كثيرة ، أما الاهتمام بالعمل السياسى التنافسى على حساب العمل الدعوي، فقد أصبح الهم الأكبر الذى يؤرق الفاهمين داخل الجماعة

قال الأخ : ولكن حسن البنا مارس السياسة .

قلت بأناة : إذا كان حسن البنا مارس العمل السياسى وخاض الانتخابات البرلمانية مرتين في الأربعينيات من القرن العشرين، إلا أنه أدرك مغبة تعريض الإخوان للعمل السياسي، وحاول قدر جهده أن يعيد الجماعة إلى حظيرة "الدعوة" الخالصة ولكن الجماعة لم تترك من وقتها فكرة مزاولة العمل

السياسي فاصطدموا عن طريق مرشدهم الثاني حسن الهضيبي برجال الثورة واعترفت الكثير من كتابات الإخوان بخطأ الهضيبي الأب في إدارة الأزمة مع رجال الثورة، ثم إذ بحركة الإخوان في عهدها الجديد وخاصة من بداية عهد حامد أبو النصر تتحول إلى حزب سياسي تنافسي يحمل راية المواجهة الانتخابية ويعادي كل الفصائل والأحزاب السياسية القائمة.

قال الأخ وكأنه يناقش : ولكن كيف نترك الانتخابات ؟ المواجهة الانتخابية في حد ذاتها دعوة .

قلت محاولا إنهاء الحوار : فكرة المواجهة الانتخابية وإن كانت تصلح للأحزاب السياسية، إلا أن الإخوان كحركة "دعوة" "إصلاحية" رفضت أن تتحول إلى "حزب" في الوقت الذي صممت على "ممارسات الحزب" للسياسة فوقعت في تناقض واضح وهو التصميم على الثبات على شكل الجماعة ورفض شكل الحزب، إلا أنها سعت إلى الممارسة الحزبية، بما سيتتبعه هذا الأمر من خوض الانتخابات في جميع المجالات ومزاحمة الحكومات القائمة والأحزاب المختلفة مما يؤدي إلى تأليب هذه الحكومات والأحزاب على الإخوان، والإشكالية الكبرى التي تتفرع من هذا الخلط هو أننا بحسباننا أصحاب دعوة وأصحاب حركة إصلاحية نسعى دائما إلى دعوة الناس للمنهج الوسطي للإسلام وإلى كسب ود الجماهير وإلى مخاطبة النخب السياسية والفكرية بما يقربهم من فكرة شمولية الإسلام ثم إذا بنا في الوقت نفسه نسعى إلى المنافسة الانتخابية معهم - بما تخلقه من عداوات . وهو ما يترتب عليه استنفار هذه القوى ضد الدعوة والحركة الإصلاحية . أنا لا أرفض خوض الإخوان الانتخابات بصفة مطلقة ولكن لماذا خوضها بأغلبية ؟ وما الذي سنستفيده من تلك الأغلبية ؟ ألا يكفي أن نخوض انتخابات نقابة المحامين مثلا أو غيرها من الهيئات بعدد محدود لا يزيد على أربعة أفراد فنحقق بذلك معادلة الوجود بالمجلس وكسب ود الفئات السياسية أو النقابية المتنافسة ونبتعد نحن بذلك عن منافسة من ندعوهم ؟

وهنا أبدى الأخ الزائر سخطه ورفضه التام لفكرة خوض الإخوان للانتخابات . فقلت له معلقا على سخطه وحنقه :

من يريد خوض الانتخابات من الإخوان بأغلبية كأغلبية الإخوان حاليا في نقابة المحامين إما أنه جاهل لا يعلم أو أنه أحمق لا يفهم وفي كلتا الحالتين

فإنه لا يدرك مغبة عمله على الدعوة

أما أنا فقد كنت سليم الطوية خالى البال عندما كنت أبدى هذه الأقوال ، وكيف لا أكونهما وأنا أتعامل مع من يرفعون شعار (الرسول قدوتنا) ؟ كنت لا أدرك وقتها مغبة أفكارى التى أطرحها للإخوان الذين كانوا يسألوننى النصيحة فقد كانت هذه اللقاءات يتم تسجيلها وحملها لمحمد طوسون وكان طوسون بدوره يقدمها للمرشد ليوهمه أننى أقود حركة تحريضية ضد قائمة الإخوان فى الانتخابات .

هبوب المشاكل

بدأت البشائر عندما اتصل بى الأستاذ فلاح سرور أحد القيادات الكبيرة للإخوان فى منطقة مدينة نصر وطلب على غير عادته مقابلتى لأمر عاجل وبشكل فورى لأمر شديد الأهمية وبعد أن أغلقت الهاتف حدثتنى نفسى أن ريح الجنوب آن لها أن تهب وتنذر بعواصفها العاتية . وحدث ما توقعته فقد أخبرنى الأستاذ فلاح أن هناك شكوى مقدمة ضدى للمرشد الحاج مصطفى مشهور من محمد طوسون وأن الشكوى مؤيدة بالأدلة والمستندات والتسجيلات الصوتية .. واستطرد أن موضوع الشكوى هو تحريضى ضد قائمة الإخوان التى ارتضتها القيادات بالإضافة إلى اتفاقى مع سامح عاشور رغم أن تاريخ عاشور معادٍ للإخوان وأن هذا الاتفاق ينقض اتفاق الإخوان مع رجائى عطية وأن السمع والطاعة مقدمتان على ما سواهما لأن قيمة الفرد تكمن - وفقا لما قال - فى قدرته على السمع وطاعة القيادات .

قلت للأستاذ فلاح بعبارات مقتضبة مبرراتى التى دفعتنى للاتفاق مع سامح عاشور وأكدت أن مسألة الاختيار يجب أن تخضع للقواعد الشرعية وأننى إذا رأيت أن اختيارات المحامين لابد من نقضها فليس هناك من قوة تحول بينى وبين هذا ، وأكدت له أننى لم أحرض أحدا ضد قائمة الإخوان ولكننى فقط كنت أتحدث عن مبدأ خوض الانتخابات نفسه وجدواه وهذا من حقى ، فلا سلطان لأحد على ما فى قلبى ، ورغم كلماتى الواضحة إلا أن الأستاذ فلاح أخذ يلح عليّ - بطيبة الأخ الذى يريد أن يبعدنى عن المتاعب - فى ترك الأمر كله بل ترك العمل مع المحامين والتفرغ للمنطقة لأن العمل مع المحامين فى تقديره يجعل فى القلب قسوة وقال إن الإخوان فى حقيقة الأمر لا يعتبرون المحامين من الإخوة مهما كانت درجة الأخ منهم لأن المحاماة

تورث صاحبها جدلا غير محبب ورغبة فى الانتصار للرأى ، وأنه لذلك يحتاج جهودى الدعوية فى منطقة مدينة نصر لنرتقى بالعمل التنظيمى فيها وأنه سيسعى بكل قوته هو وإخوانه إلى وأد الشكوى فى مهدها شرط أن أتفرغ له فى المنطقة .

لم تترك كلمات الأستاذ فلاح أثرا فى نفسى ولو بمقدار حصاة وتركته لأذهب إلى لقاء ببعض المحامين من المتعاطفين مع الإخوان وبعض المنتسبين الجدد للجماعة من إحدى المحافظات وكانت هذه اللقاءات تتم بشكل يومى مع قطاعات متنوعة من المحامين لخلق مساحة رفض فى نفوسهم تجاه تأييد الأستاذ رجائى عطية ولتهيئة المناخ لسامح عاشور وكان أنصار موقفى يتزايدون يوما بعد يوم خاصة وأن صحيفة صوت الأمة نشرت قبل الانتخابات بأيام خبر قيام عاشور بحل المشاكل التى كانت تواجه مختار نوح والإخوان المسجونين معه فى سجن مزرعة طرة والتى لم يستطع الأستاذ رجائى عطية التصدى لها أو حلها هو أو غيره .

وللمرة الثانية أتت ريح الجنوب ـ بعد تزايد الأنصار ـ بما لم يرد على بال وبما لم يحدث فى تاريخ جماعة الإخوان من قبل .

الفصل السادس

إعلان الأحكام العرفية الإخوانية

«شتان بين من يطلب الحق فيخطئه وبين من يطلب الباطل فيصيبه .. الأول أخطأ والثاني أصاب ، ولكن خطأ الأول صواب لأنه اجتهد للحق وصواب الثاني خطأ لأنه انتصر للباطل».

تمت انتخابات المحامين في مرحلتها الأولى وتأجلت أسبوعا لعدم اكتمال الجمعية العمومية حيث قرر المستشار المشرف على الانتخابات تأجيلها ليوم ٢٠٠١/٢/٢٤ ، وفي صباح اليوم التالي وجدت من يطرق باب بيتي ... كان الطارق هو المهندس أحمد شوشة الذى كان في وقت سابق عضوا معي في أسرتي الإخوانية حينما كان مسئول منطقة مدينة نصر ثم أصبح فيما بعد مسئول قسم التربية داخل التنظيم عن محافظة القاهرة ... أثارت زيارة أحمد شوشة لي دون سابق موعد دهشتي إذ كانت صلتي به قد تباعدت منذ فترة ليست بالقريبة خاصة بعد أن شغلته مسئولياته التنظيمية التي تدرج إليها وصعد سلالمها درجة درجة ولم يعد هناك بالتالي متسع من الوقت للتواصل المباشر بيننا .

كان أحمد شوشة قيادة إخوانية بارعة في العمل التنظيمي ومتطلباته وبيروقراطيته وقد ارتبط بالمهندس خيرت الشاطر ارتباطا وثيقا مذ كان طالبا في كلية الهندسة جامعة المنصورة ، وقتها كان خيرت الشاطر معيدا بهذه الكلية وكان قد بدأ يخطو إلى الوجهة الإسلامية ، وبسبب براعة الشاطر وذكائه وثقافته فقد استطاع اجتذاب قطاع عريض من الطلبة إلى ناحيته وكان شوشة من هؤلاء الطلبة الذين تعلقوا بأهدابه ، وتوثقت عرى أحمد شوشة بالإخوان خاصة أن صلات ما قامت بينه وبين عدد من كبار الإخوان بمحافظة دمياط التي ينتمي إليها حيث ارتبط تنظيميا بالحاج أسعد زهران مسئول الإخوان بهذه المحافظة التليدة إخوانيا ، كما أنه - الحاج أسعد زهران - أحد القيادات التاريخية للجماعة وأحد أكثر المرتبطين تنظيميا بالحاج مصطفى مشهور ، وبعد أن التحق شوشة بالإخوان وسبر غورها أصبح من المرتبطين بالشاطر تنظيميا خاصة بعد أن جمعتهم منطقة واحدة هي منطقة مدينة نصر وبعد أن أصبح الشاطر ملء السمع والبصر وصاحب قرار داخل الإخوان أصبح أحمد شوشة بدوره صاحب مواقع قيادية فيها فأصبح مثلا مسئول منطقة مدينة نصر ثم مسئول قسم التربية عن محافظة

القاهرة .

أدركت من أول وهلة أن هذه الزيارة التى باغتنى بها شوشة وراءها ما وراءها ، فقلت فى نفسى "وعند جهينة الخبر اليقين" .

أخذ المهندس شوشة فى حديثه معى يطيل فى مقدمات أدركت منها أن هناك مستجدات من شأنها أن تعكر الماء حتما ولكننى تركته يتحدث بلكنته الدمياطية المحببة دون أن أقاطعه حتى صك أذنى بخبره الذى جاء من أجله : صدر قرار من المرشد يا أخى الحبيب بمنعك من الخروج من بيتك حتى تنتهى الانتخابات .... وساد الصمت بيننا إذ سلب الذهول عقلى للحظة .. ثم ما لبثت الدهشة أن غلبتنى حتى سيطرت على فؤادى ثم انقلبت الدهشة إلى ابتسامة وكادت الابتسامة أن تتحول إلى قهقهة كبيرة ترج حوائط البيت لولا أن غالبت نفسى وتحكمت فى انفعالى واعتصمت بالصمت حتى لا تفضحنى تلك القهقهات المكتومة ، وفى الوقت الذى كنت فيه أغالب ضحكاتى كان المهندس شوشة ينظر إلى وجهى متفرسا عله يرى أثر الخبر الذى ألقاه على سمعى ، وبعد فترة من الصمت استطرد المهندس شوشة قائلا : أعلم يا أخى الحبيب أن هذا القرار ظالم وليس له سابقة فى تاريخ الإخوان وأنا وكل إخوانك فى مدينة نصر يرفضونه لكننا جميعا لا نملك شيئا إزاء هذا القرار ولا نستطيع إلا السمع والطاعة .. ثم أردف وكأنه يبرر القرار : ماذا نفعل فى إخوانك من المحامين لقد أوصلوا للحاج مصطفى أنك كنت تحارب قائمة الإخوان ، وقالوا له أن هذه الحرب من شأنها أن تؤثر فى نجاحهم وأنت تعلم أن الحاج مصطفى مريض وليس فى إمكانه أن يتحمل الإلحاح وتحت ضغط بعض الإخوة أصدر هذا القرار .... وأكمل قائلا : كلنا يعلم أن هناك فى الإخوان من ارتكب موبقات تنجس البحر المتوسط ومع ذلك لم يصدر ضده مثل هذا القرار ، ولكننا نريد هنا فى منطقتنا أن نضرب المثل على الالتزام ونثبت لإخواننا وقادتنا أننا نسمع ونطيع حتى ولو كان القرار ظالما ... وأنت ستضرب لنا جميعا المثل وستكون قدوتنا فى السمع والطاعة وتنفذ هذا القرار خاصة وأن مدته ستة أيام فقط ... وكلنا يا أخى الحبيب يثق فى أنك ستساعدنا بحسن طاعتك على أن نرد كيد إخوانك من المحامين .

واستطرد يشجعنى على الطاعة : أذكر يا أخى أننى سمعت قولا من أشياخى فى الإخوان ظل ساكنا فى فؤادى بل اتخذته دستور حياتى هو ...

الأخ بين يدى مرشده كالميت بين يدى مغسله يقلبه كيف يشاء ... وليدع الواحد منا رأيه فإن خطأ مرشده أنفع له من صوابه فى نفسه .

اختلطت فى قلبى مشاعر متنوعة إذ فكرت أن أقول له مالى ومالكم ... كيف طاوعنى عقلى أن أنضم لجماعة هذا هو تفكير قائدها الأعلى ؟!! راودتنى نفسى أن أقول له قل لمرشدك أنه حوّل الجماعة إلى تنظيم خاص وأنه آن لى أن أمد قدمى لأترككم تنهلون من عسكريتكم التى قلبتم بها وجه الجماعة ... أف لكم ولما تتبعون... إلا أننى طردت كل ما اعتمل فى فؤادى حيث حدثتنى نفسى قائلة : فلأسايره للنهاية حتى أرى ما فى جعبتهم .... ثم قلت له بصوت خفيض وأنا أصطنع الهدوء : ولكننى أعمل يا أخى الكريم فى المحاماة ولى مكتبى الذى يجب أن أذهب إليه يوميا وعندى العديد من القضايا التى يلزم أن أتابعها وأحضر جلساتها بنفسى وهذه القضايا هى محض مصالح لعامة ناس ارتبطت معهم بعقود والقرآن يحضنا على الوفاء بالعقود فالله سبحانه وتعالى قال لنا فى كتابه الكريم (أوفوا بالعقود) فكيف أنقطع عن هذا وكيف لا أذهب إلى عملى الذى هو مصدر دخلى وقوتى وقوت أولادى فذهابى فقط للمكتب يضمن لى دخلا ماليا من الاستشارات أعتبره هو الأساس عندى ؟ أيعقل هذا !! .

احتار المهندس شوشة بطيبته المعهودة فى الجواب ولكنه أمسك بالهاتف واتصل بالمهندس ممدوح الحسينى الذى كان وقتها مسئول منطقة مدينة نصر وطلب منه أن يستأذن الحاج مصطفى مشهور فى أن أذهب فقط للمكتب ولجلساتى فى المحكمة ، إلا أن الحاج مصطفى مشهور لم يأذن رغم وجاهة الطلب إذ كان يتصرف وكأنه الحاكم والقائد الأعلى تجاه أحد الجنود الذين خالفوا قواعد العسكرية الصارمة .... وهنا عادت ذاكرتى القهقرى عندما كنت أخطو قدما فى سلك الإخوان أثناء وجودى بمنطقة الزيتون فى النصف الثانى من الثمانينيات عندما تم التحقيق مع الأخ عمر التلاوى - وقد كان وقتها مسئولا عن إحدى الشعب الإخوانية - لأنه تجرأ وخرج عن أوامر قيادات منطقة شرق القاهرة التى كانت تلزم الجميع بالتصويت للحاج مصطفى مشهور فى انتخابات شورى الإخوان!! مع أن فلسفة الانتخابات تقوم على الاختيار الحر لا على التكليف والأمر وإلا فقد التصويت قيمته .. ونظرا لأن الأخ قد صدّق أن التصويت يتم بشكل حر فقام بإعطاء صوته لأخر كان يرى

أنه يستحق أكثر من مصطفى مشهور فكانت الطامة الكبرى وتم وقفه لمدة عام وتجريده من درجته الإخوانية .

وتذكرت الأخ فوزى الجزار المحامي رحمه الله الذى كان شخصية إخوانية لها حضورها الطاغى والمؤثر فى منطقة إمبابة وكان عضوا بمجلس نقابة المحامين الفرعية بالجيزة .. وحدث أن قامت زوجته فى جلسة مع الأخوات بانتقاد تصريح سياسى للحاج مصطفى مشهور فوصل الانتقاد عن طريق الجاسوسات لقيادات الإخوان التى طلبت فى أمر صارم تجرد من المشاعر من الأخ فوزى تطليق زوجته التى خرجت عن جادة الصواب وانتقدت الحاج مصطفى فى جمع من الأخوات !! وعندما رفض الأخ ما طلبوه قامت الجماعة بفصله وحاربته فى رزقه وأمرت كل الإخوان بسحب قضاياهم من مكتبه ...(وبعد خمس سنوات مات فوزى الجزار كمدا يتجرع جحود الإخوة ... وقد كان هذا الجحود عنده - كما قال لى قبيل وفاته - أشد قسوة عليه من مرض السرطان الذى نخر فى جسده ... ما زلت أذكره وهو يتجرع الحسرة فى نزعه الأخير .. حينها قال لى وهو يغتصب ابتسامة مجهدة : وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند ... وبعدها بأيام فاضت نفسه) .

توالت هذه الذكريات على خاطرى أثناء مفاوضات الإخوة مع الحاج مصطفى مشهور ... وأخيرا قبل الرجل أن أذهب للمحكمة فقط دون المكتب فقد أقنعوه أن عندى قضايا هامة يستحيل تركها فوافق بشرط أن يرافقنى أحد الإخوة فى الذهاب للمحكمة والإياب منها ، وأذن الحاج أيضا - رحمه الله - تكرمة منه أن أخرج من بيتى لصلاة الجماعة على أن يكون ذلك بالمسجد القريب من بيتى !! ، ومن عجب أننى علمت فيما بعد أن قرار حظر الخروج ومنع التجول كان خلفه اثنان من العقليات الأكاديمية العلمية فى الجماعة من المتخصصين فى علم الجيولوجيا هما الدكتور محمد حبيب والدكتور رشاد بيومى أعضاء مكتب الإرشاد !! فهل للجيولوجيا وفروعها علاقة بهذا القرار العسكرى !! هذا أمر ينبغى أن يخضع لتحليل وتنقيب .

لا شك أن هذا القرار العرفى وفقا للناظر فى تاريخ الجماعة هو أعجب وأغرب القرارات التى صدرت فى تاريخ الإخوان ، ومن قدر الله أن كان هذا القرار من نصيبى تلقفته كما أتلقف كرة ملتهبة من النار إلا أن هذه الكرة

النارية أكدت لى بما لا يدع مجالا للشك أن الجماعة انقلبت إلى وجهها الذى كان مستترا عنى وعن كثيرين غيرى ، كنت قد دخلت الإخوان من أجل نهج دعوى دون أن أحفل ببعض مظاهر تنظيمية تحض على الطاعة إذ ظننت - كما ظن غيرى - أن الفهم مقدم على الطاعة وأن الطاعة هى طاعة محبة لا طاعة عسكرة وأن العمل الدعوى يشفع طاعة منزوية فى قاع الجماعة ، ويكفى أن الدعوة تغلغلت فى شرايين الجماعة إذ كان ظنى أنها جماعة مدنية .. وأظن أنها كانت كذلك إلى أن سيطر عليها ذلك الفريق الذى قال عنه الدكتور السيد عبد الستار المليجى - القيادى الإخوانى البارز - فيما بعد (إنهم مجموعة خطفت الجماعة) ، وقال عنهم المهندس أبو العلا ماضى (الإخوان طائرة تم خطفها من أفراد التنظيم الخاص)

كان إعلان الحكم العرفي الصادر بمنعي من التجول لمدة ستة أيام داعيا إلى تعقيب وتنويه المفكر الإسلامى الدكتور محمد سليم العوا فى جريدة الأهرام إذ كتب يوم الاثنين الموافق ٢٠٠٨/٣/٥ وهو يحلل نتيجة انتخابات نقابة المحامين «وقد وقف تيار إسلامي كله بثقله.. وتنظيمه المحكم.. فى أوساط المحامين يؤيد الأستاذ رجائى عطية.. وحين تصرف بعض المحامين المنتسبين إليها فى الجولة الأولى على غير مقتضى موقفها المعلن .. طُلب منهم وامتثلوا !! أن يعتزلوا الناس كافة فيما بين جولتى الانتخابات، ويلزموا بيوتهم حتى لا يؤثر سلوكهم فى موقف المحامين الآخرين من الجماعة نفسها».

أسرعت إلى الدكتور توفيق الشاوى أستشيره وأبثه لواعج نفسي وأحكى له ما حدث من جماعته أو بالأحرى ما حدث من جماعتنا ، وكنت قد ذهبت إليه قبل وبعد انتهاء المحاكمات العسكرية عدة مرات ووجدت منه استنارة فريدة وحكمة بالغة وسعة أفق ، إلا أننى انقطعت عنه منذ آخر زيارة لفترة طويلة لم أره فيها ولم أتحدث معه ، وعندما تصاعد دخان الأحداث وصدر المنع من التجول تحرقت شوقا لإخباره بالمستجدات حتى أن سيارتي كانت تستبق الزمن وأنا فى الطريق إلى بيته وكأنها مثلى تتحرق شوق له ، أنصت الدكتور بعمقه المعهود ثم قال : كاد الهلع أن يصيبني من هول ما سمعت.. يحدث الآن ما تخوفت منه يا بُني .. لقد تم عسكرة الجماعة رغما عن أنفها .. ثم تمتم قائلا بصوت مبحوح : وكأنما لم يكن لدى شك أن الجماعة على يد

الحاج مصطفى ومن هم على شاكلته الفكرية فى طريقها إلى العسكرة .. فهكذا نشأ الرجل وعلى هذا جُبل هو وهم .

قلت له وأنا أضغط على الحروف بصوت خفيض يكاد يرتعش من التوتر: ولكن ألا يوجد فى الجماعة من يقف ضد هذه العسكرة ؟ أليس فيهم رجل رشيد ؟

قال الأستاذ وقد استصحب فى قوله سنين خبرته وتجربته : لن يتمكن الإصلاحيون من الوصول إلى ما نصبو إليه إلا إذا حل جيل محل جيل وهذا أمر يصعب تحقيقه مع تلك المعادلة الفكرية التى اجتاحت قلب الجماعة ... ليس فى طوق أحد الآن أن يجرى تعديلا بالشكل التنظيمى المتعارف عليه ... نحتاج يا بُنى إلى ثورة تنظيمية وفكرية.. ثورة تعيد الجماعة إلى قلبها الأصلي

قلت بشغف : أتقصد ثورة يقودها جيل الشباب من أجل أن يصل إلى المقاعد العليا .

قاطعني : ليس الشباب هنا مرحلة سنية ولكنه نمط فى التفكير ومنهج وعقيدة .. فأولئك الذين نقصدهم غرسوا مفاهيمهم الدخيلة فى عقول الأجيال الجديدة فأصبح الجديد كالقديم وكأنك تقلب الجورب على وجهه الآخر ولكنه ما زال هو هو نفس الجورب .

نظرت إلى برواز معلق على الحائط الأمامى يحتوى على صورة نادرة للشيخ حسن البنا وأطلت النظر فيها ثم قلت له : ألم يُنشئ حسن البنا ذلك النظام الخاص الذى أفرز تلك النوعية التى تقصدها والتى عسكرت الجماعة ؟

قال الأستاذ : من الظلم لحسن البنا أن نجعله قديسا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فلقد أخطأ البنا فى أشياء كثيرة إلا أن من كتب تاريخ الإخوان من جماعتنا كتبوه بعقلية المريد لا بعقلية الباحث لذلك تتكرر الأخطاء ... البنا أخطأ لاشك فى مسألة التنظيم الخاص وقد اعترف لى ولآخرين قبل موته بهذا الخطأ وقال (لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما أنشأت النظام الخاص) .

قاطعته بأدب : وأين يكمن الداء الآن يا أستاذى ؟ لا أظن أن الجماعة فيها تدريبات عسكرية الآن .

عادت إليه الابتسامة وهو يقول : ليست العسكرة هى التدريب على السلاح

ولكن العسكرة نمط فى التفكير وآلية فى الإدارة وآيات العسكرة كثيرة .

قلت له وأنا أرشف الشاى : مثل ماذا ؟

قال : دعك من قرار منعك من الخروج من بيتك فهذا كشف عن الداء العسكرى الذى أحاط بالجماعة ، ولكن قرار حظرك هذا لم ينشئه .. آيات العسكرة يا عزيزى تظهر قبل هذا وذاك فى انعدام قنوات الشورى داخل الجماعة واختفاء الحوار الجاد ، و إفراغ الساحة الداخلية لمن يقدمون الولاء العاطفى فهؤلاء وحدهم هم أصحاب الحق فى الترقى ، مما منح الفرصة لنماذج انتهازية خالية من أى قدر من الكفاءة لكى يكون لها موقع الصدارة فى الجماعة فى كافة التشكيلات، وهاهم أولاء يمنعونك من الخروج من بيتك لأنك اختلفت معهم فى الرأى .

قلت مؤكدا : أرى أيضا يا أستاذنا الحبيب أن الشكل التنظيمى يقترب من الأشكال العسكرية فعندنا قيادة و جنود ، كتائب و مخيمات ومعسكرات، و مفاهيم ترفع من شأن الطاعة والثقة وكأننا جحافل من الأمن المركزى .. فهل الأمر بحاجة لهذه العسكرة؟ هل نحن فى مواجهة مع استعمار ؟ لسنا يا سيدى الأستاذ كتائب شبه عسكرية المفروض أننا جماعة مدنية دعوية فكرية ولن نحصد من العسكرة إلا القمع والمواجهات الأمنية والاستغراق فى خصومات لا طائل من ورائها، و لم نعد قادرين على تحمل كلفتها الباهظة .

قال الأستاذ معقبا : لقد قال لهم المرحوم محمود عبد الحليم(١) مثل ما تقول الآن وكان جزاؤه الإبعاد عن أى موقع وكان التلمسانى رحمه الله يؤمن بهذا ولكنهم أحكموا الخناق على الجماعة واستلبوها لأنفسهم ، وأنا نفسى أين ترانى ؟ رغم تاريخى وسبقى فى الجماعة إلا أننى أجلس فى ضفة وهم يجلسون فى ضفة أخرى وما ذلك إلا لأننى أؤمن بغير ما يؤمنون به ... أنا صاحب عقلية مدنية وهم أصحاب عقلية عسكرية ... وهنا اختنق صوته أو كاد وقال وهو يحاول أن يرفع صوته : هاهى الأيام تؤكد أن الجماعة قد تم خطفها وعسكرتها .

١- الأستاذ محمود عبدالحليم كان من الرعيل الأول للإخوان المسلمين وكان رفيقاً لحسن البنا وكان صاحب فكرة شعار الإخوان المسلمين وله المؤلف المعتمد من الإخوان فى التاريخ للجماعة إلا أنه فى آخر حياته كان قد ابتعد - أو أُبعد- عن مهامه ومواقعه التنظيمية لأنه تبنى أفكاراً تخالف أفكار مجموعة القطبيين التى أحكمت سيطرتها على الجماعة.

بعد انصرافي من عند الدكتور عقدت العزم على رفض قرار حظر التجول إذ ليس هناك مبرر يدعوني إلى قبول مثل هذا الاستبداد .. إلا أن اتجاه تفكيري تغير عندما أخبرني أحد أصدقائي من المحامين الإخوان عن أمر نوى أن يفعله محمد طوسون ، فقلت في نفسي أن للرمح أن يرتد إليهم .... وفي المساء ذهبت للمهندس ممدوح الحسيني في مكتبه الهندسي بمدينة نصر وكان عنده وقتها المهندس أحمد شوشة وقلت لهما بعد أن أضمرت ما في نفسي : سأطيع القرار وسأنفذ ما طلبتما مني فاستبشرا خيرا وقبّلاني .

أصبحت في الإخوان من أهل الخطوة

كان صبح اليوم التالي قد أوشك على الرحيل حيث بدأ في سحب بساطه الذي تغلفه برودة محببة ولم تكن الشمس قد توسطت السماء بعد حينما أمسكت بالهاتف وحدثت المهندس ممدوح الحسيني :

أخي الكريم أريدك أن تمر عليَّ بالبيت لأمر غاية في الخطورة .

ـــ على الرحب والسعة أخي الحبيب سأمر عليك إن شاء الله قبل صلاة العصر ولك أن تتحدث معي بما شئت ثم سنذهب بعد حديثنا لصلاة العصر في مسجد موسى بن نصير القريب منْ بيتك إن شاء المولى عز وجل .

ـــ جزاك الله خيرا

وسرعان ما حضر المهندس الحسيني قبيل موعده المضروب يُبْدي حميمية واضحة ومحبة زائدة رغبته في الاستماع لما عندي .

نزح المهندس ممدوح الحسيني إلى مدينة نصر من منطقة حدائق القبة حيث كان مسئولا عنها وما إن حل برحله إلى مدينة نصر حتى أصبح المسئول الأول عنها ، وكان أميز ما يميز المهندس الحسيني أنه يحمل قدرا من العلم الشرعي فقد تخرج من هندسة عين شمس في أوائل السبعينيات ، ثم سافر إلى المملكة السعودية للعمل وهناك التحق بالإخوان وعاد إلى مصر ليلتحق بعد ذلك بالأزهر الشريف ويتخصص في أحد العلوم الشرعية وبذلك جمع بين تخصصين ..... الهندسة والعلوم الشرعية ، ولم تمر أشهر على عودة الحاج مصطفى مشهور من خارج البلاد عام ١٩٨٦ بعد خمس سنوات من الغربة حتى استطاع استقطاب العديد من الشباب إليه والذين كانوا معه بمثابة فرسان المعبد ، كان المهندس ممدوح الحسيني هو أحد هؤلاء الفرسان

من الشباب الذين تقاطروا خلف مشهور يرفعون سيوفهم التنظيمية فى مواجهة كل من يريد أن يقوّض أركانهم .

بعد عبارات الترحيب المعتادة قلت للمهندس الحسيني وأنا أقدم له كوب الشاى وقطعة الكيك : لقد عرفت من بعض إخوانى من المحامين الإخوان أن محمد طوسون ومعه بعض الإخوة المحامين من فريقه سيقدمون عقيب الانتخابات شكوى جديدة ضدى للمرشد وسيدّعون فيها أننى خالفت قرار الحاج مصطفى المتضمن منعى من الخروج من بيتى وسيزعمون أننى خرجت وذهبت للنقابة يوم الانتخابات ووقفت أدعو ضد قائمة الإخوان !! فماذا ترى يا أخى ؟ .

أمسك المهندس الحسيني كوب الشاى بيد مرتعشة وكأن رعشته تعبر عن ضجره من هذه القصة التى أقحمته فيها القيادات دون حول ولا قوة منه ... إلا أنه قال وهو يتصنع الحكمة : إنك تتحدث عن أمر مستقبلي فى عالم الغيب حيث لا يستطيع أحد أن يجزم به ولا أن يؤكد وقوعه ولا أظنهم سيفعلون ذلك إلا إذا خالفت القرار بالفعل ، هم فى الأول والآخر إخوانك ولا يبتغون إلا صالح الدعوة فلماذا سيتعقبونك بالشكاوى ؟ أراك مغاليا فى توقعاتك يا أخى الحبيب .

قاطعته قائلا : هذه ليست توقعات ولكنها معلومات .. ثم أردفت : ومع ذلك سأقترح عليك اقتراحا

ـــ تفضل

ـــ أظن أن الشكوى التى أعرف يقينا أنهم يعدون لها من الآن سيتم تقديمها للمرشد وستكون عن مخالفتى للقرار في يوم الانتخابات ، والمسألة بسيطة يا أخى أقترح أن أقضى معك يوم الانتخابات فى مكتبك الهندسى من الصباح باكرا وحتى آخر الليل حتى تكون شاهدا بعد الله سبحانه وتعالى على موضع وجودى فى يوم الانتخابات، فإن تقدموا بشكوى سيتضح للجميع أنهم يكذبون كما يتنفسون ، وقتها سأطلب حقى منكم جميعا ، وإن لم يتقدموا بشكوى كما تظن فلن نخسر شيئا يكفينى شرف الوجود فى معيتك فى هذا اليوم .

لم يكن أمام المهندس الحسينى إلا أن يوافق على الفكرة فورا إلا أنه أضاف اقتراحا بأن أنوى الصيام فى هذا اليوم وأكمل قائلا: إن الصالحين

من عباد الله سبحانه وتعالى يحاربون المعاصى بالطاعات وما يحدث فى نقابة المحامين بينكم الآن هو من أعلى المعاصى ولذلك يجب أن نتزود بالطاعة ثم استطرد : سنفطر معاً فى هذا اليوم ثم نستمر فى المكتب لصلاة العشاء على أن نصلى مع مجموعة من الإخوة سيحضرون لمكتبى آنذاك ثم سيمكثون معى بعد انصرافك لبعض شأنهم التنظيمى .

وأضاف أنه سيقوم بإبلاغ المرشد بخبر هذه الفكرة حتى يستأذن منه فى خروجى من البيت يوم الانتخابات للمكوث معه إذ تقتضى القواعد أن يتم الحصول على موافقة المرشد لإضافة هذا الاستثناء .

كان لابد مما ليس منه بد ، رغم أننى كنت قد عقدت العزم على أن أخفى الأخبار عن مختار نوح وعن باقى الإخوة فى محبسهم إلا أن تطور الأحداث دفعنى إلى كتابة خطاب يحتوى على كل التفصيلات كبيرها وصغيرها واستطعت بطريقتى الخاصة أن أرسل له هذا الخطاب بعيدا عن أعين الرقيب الأمنى داخل السجن وقد احتوى خطابى على شرح تفصيلات قرار المرشد بمنعى من الخروج من البيت لأسبوع ثم شرحت مبررات قبولى للقرار وأضفت فى نهاية الخطاب ذلك الذى انتويته بقضاء يوم الانتخابات فى مكتب المهندس ممدوح الحسينى وشرحت الأسباب التى دفعتنى لاتخاذ هذا القرار .

وجاء يوم الانتخابات...

كان شهر فبراير فى هذا العام يُعبِّر عن فصل الشتاء خير تعبير وكأنه ممثله الشخصى ومندوبه السامى إلا أن يوم الرابع والعشرين منه كان كريما كأجود الكرماء إذ لم يرِد أن يخوض المحامون غمار انتخاباتهم فى جو بارد فأرسل فبراير سراح أشعة الشمس فى هذا اليوم ليصبح الجو دافئا جوّادا ولعل بعض دفئه انبثق من سخونة تلك الانتخابات التى اشتعل أوارها فى نقابة المحامين .

وما إن ظهرت تباشير الصباح ترفل فى السماء حتى أخذت مصحفى وذهبت إلى مكتب المهندس ممدوح الحسينى الذى لم يكن قد حضر بعد ، وانشغلت بقراءة القرآن إلى أن حضر الرجل فأخذنا نتجاذب أطراف الحديث ثم تركنى وانخرط فى أعماله أما أنا فقد شغلت وقتى طوال اليوم بقراءة القرآن ، وعند أذان المغرب صلينا جماعة مع بعض الإخوة حيث شاركنا

بعضهم فى طعام الإفطار وكان منهم الأخ صادق الشرقاوى الذى تم حبسه فى وقت لاحق فى القضية العسكرية التى حُبس فيها خيرت الشاطر والمعروفة بالقضية رقم ٢ لسنة ٢٠٠٧ ، وبعد صلاة العشاء جاء الخبر اليقينى بأن الاقتراع فى النقابة قد انتهى وأن لى أن استرد حريتى وأن أغادر المكان فقد انتهت بانتهاء الاقتراع مدة الحظر وانقضى سبب منع التجول وأصبح من حقى أن أخرج كما أشاء وأمارس حياتى كما يحلو لى .

نجح سامح عاشور نقيبا للمحامين ونجحت قائمة الإخوان بأكملها !! فأصبح عاشور نقيبا بلا مجلس وأصبح المجلس مجلسا بلا نقيب فقد بدأ الشقاق بين الفريقين وكأنهما فريقان يختصمون .

وبعد يومين طلبنى المهندس الحسينى حثيثا واستسمحنى فى زيارته بمكتبه فذهبت إليه بعد أن كنت قد وليتُ وجهى صوب مكتبى .

وما إن شاهدنى أدخل عليه حتى بادرنى قائلا : حدث ما تخوفت منه

ـ كيف ذلك

: تقدم طوسون ومعه آخرون من إخوانك بشكوى ضدك قدموها للحاج مصطفى مشهور

ـ يا الله وماذا قالوا فى شكواهم ؟

: الذى توقعته أنت ... قالوا إنك خالفت القرار وخرجت من بيتك يوم الانتخابات وذهبت للنقابة ووقفت تدعو ضد قائمة الإخوان وأن بعض الإخوان حاولوا مناقشتك للعدول عن مسلكك إلا أنك رفضت الاستماع لهم .

ـ الحمد لله بهذا يا أخى الحبيب ظهر الحق عيانا بيانا وأظن أن الحاج مصطفى عرف يقينا أن شكواهم كاذبة فقد كان يعلم أنى فى معيتك يومها .

قاطعنى الرجل قائلا: مهلا يا أخى فهناك أكثر من ذلك

ـ ما هو ؟

: لقد أحضروا شهودا من الإخوان المحامين - أحدهم صار عضوا بمجلس النقابة - يشهدون أنهم رأوك فى النقابة وناقشوك فى أمر دعايتك ضدهم وقد شهد هؤلاء بهذا فى حضرة الأستاذ مأمون الهضيبى نائب المرشد وأقسموا على صدق شهادتهم

قلت ضاحكا: لا أظن أننى من أهل الخطوة أو أن لى قدرة على الوجود فى مكانين فى أن واحد فالقدرة لا تتعلق بالمستحيل

فبادلنى الضحكات وقال فى كلمات حاسمة : والله لن أتركهم وسيلقون غيا (وغياً هو واد فى قعر جهنم)

كان ظاهر الأمر يوحى بأن أمواج اليم العاتى قد سكنت إلا أننى لم أكن أعلم وقتها أن بحر الإخوان يخفى العجائب التى لا تنفد والتى لا يمكن أن ترد على قلب بشر .

الزيارة في العبارة

كان يوم الجُمعة الذى جاء يتهادى بعد يوم الانتخابات يوما غير عادى ، فقد تم فتح أبواب سجن طرة لتدلف إلى داخله سيارة مرسيدس فضية اللون تحمل فى داخلها شخصين يرتدى كل منهما نظارة سوداء ، أما الشخص الأول الذى بدا طويل القامة مشرئب العنق ذا شعر رمادى فقد كان سامح عاشور الذى أصبح نقيبا للمحامين ، وكان الشخص الثانى الذى بدا مكتنزا بعض الشيء ..أبيض الوجه بحُمرة تداعبها خصلات شعر أشقر فقد كان عاطف عواد .

وقفت السيارة أمام سجن ملحق مزرعة طرة الذى يقضى فيه الإخوان عقوبة الحبس فى قضية النقابيين ، وأمام السجن كان فى انتظارهما ضابط أمن الدولة الذى هش لاستقبالهما واحتفى حفاوة خاصة بنقيب المحامين الجديد ثم قادهما إلى داخل السجن من أجل زيارة خاصة شديدة الأهمية ليس من أجل موضوعها ولكن من أجل أصحابها فالزائر هو سامح عاشور نقيب المحامين وبرفقته عاطف عواد الإخوانى السابق والوسطى الحالى أما المزور فهما مختار نوح وخالد بدوى وهما من هما ، كان عاشور يحمل فى يده علبة كبيرة تحتوى على تورتة قام بتقديمها لنوح وخالد بدوى احتفالا منه بنجاحه العسير ، ودار حوار طويل بينهم حكى فيه عاشور تفصيلات المعركة ودقائقها وكان خالد بدوى حريصا فى كلماته على أن يؤكد لسامح عاشور أنه لولا ثروت الخرباوى ومن معه لما نال عاشور نجاحا أو فلاحا ، وعاشور بطبعه كان يقلل من أهمية دور هذا الفريق قائلا : لقد منعوه يا مولانا من الخروج من بيته .

ولكانما كان لسان حال عاشور يصرخ (إنما أوتيته على علم عندى) وكأن هذه العبارة هى سبب حضوره ليؤكد أنه غير مدين لأحد .

فبادره خالد بدوى بكلمات عربية فصيحة وهو يطرق إلى الأرض :

والله الذى نفسى بيده إن جهد ثروت الخرباوى وعاطف عواد ومن كان فى ركابيهما كان هو الأمر الفارق فى الانتخابات ولا يستطيع أحد أن ينكر ما تعرض له الخرباوى من مضايقات من أجل دعمك وقد كنت أنا وإخوانى هنا فى السجن ندعو له ونبارك عمله نحسبه من المخلصين والله حسيبه ولا نزكى على الله أحدا .

وظل خالد بدوى لا ينى يكرر مثل هذه الكلمات يرد بها على عبارة عاشور التى كانت هى السبب الباطنى للزيارة رغم أن الواقع يثبت أن من فى السجن لم يكن لهم أى شأن بالتفصيلات التى استجدت فى المعركة فلم يكن لهم علاقة من قريب أو بعيد بوقوفى مع عاشور ضد رجائى عطية ، بيد أن خالد بدوى كان يستهدف من باب التكتيك إفهام عاشور أنه لم ينجح إلا برعاية ودعم وأمر المساجين من الإخوان وأن ما صدر من ثروت الخرباوى كان بالاتفاق مع من هم فى داخل السجن لعل هذا التكتيك يؤتى أكله ذات يوم فى تنسيق نقابى أو توفيق بين الأطراف المتصارعة فى النقابة إذ لابد أن يكون أحدهم رمانة للميزان أو من فريق الحمائم إذا كان هناك فريق الصقور ، وكثيرا ما كنا نستخدم هذا التكتيك مع سامح عاشور فى مرات لاحقة كما كنا نستخدمه مع غيره من الطامحين لكرسى العضوية ... هكذا هى السياسة وهكذا هى دروبها وطرقها .

لم يكد خبر الزيارة يتسرب حتى اشتعلت الشعل .. فها هى النار تتأجج من جديد فى قلب محمد طوسون الذى اعتبرها مؤامرة تضامت مع المؤامرة التى 'ختلقها خياله عن محاربتى لقائمة الإخوان ، وظن الرجل أن مختار نوح يتفق وهو فى سجنه مع سامح عاشور من أجل تشكيل هيئة المكتب لمجلس النقابة وهيئ له خياله أن هناك تدبيرات محكمة من أجل إبعاده عن أى موقع قيادى بالمجلس ، واستمرأ ظنه واعتقد أننى عرّاب هذا الاتفاق وأنى كنت المرافق الثانى لعاشور فى زيارته تلك (!) .

وكأنهم أصبحوا كساعى البريد لا ينفك عن تكرار ما يفعله بشكل يومى بلا ملل ولا كلل زارنى الأخ فلاح سرور وأنبأنى أن طوسون قدم شكوى أخرى ضدى وزاد فى شكواه أننى اصطحبت سامح عاشور لزيارة مختار نوح فى السجن !! وأننى كتبت مقالة فى إحدى الصحف اتهمت فيها بعض قيادات

الإخوان بعقد محاكمات عسكرية لأفراد الجماعة .

ولم يكد ينتهي من قوله حتى بادرته قائلا : هذا تخليط لا يليق ولا ينبغى للإخوان أبدا أن يستمعوا لمثل هذا الكلام وأنا أعجب من أذان الإخوان التى تصغى لهذا بل وتتوخاه .. أليس هناك فى أمة الإسلام والمسلمين ما يستحق اهتمام الإخوان أكثر من القيل والقال الذى نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم . وأعاد الأخ فلاح على مسمعى رجاءه الذى استحثنى عليه من قبل أن أتفرغ له فى المنطقة وفى هذه المرة قبلت ... وكأن لسان حالى يقول «مرغم أخاك لا بطل» .

استراحة المحارب

مع الامتداد العمرانى هجرت منطقة التجمع الخامس الصحراء الجدباء واقتربت شغفا من تخوم مدينة نصر ، وقد ساعد الطريق الممهد الذى تم شقه يسار (مقابر مدينة نصر) على سهولة التنقل بين الحيين وكأنهما جسدان متداخلان فى جسد واحد ، ومع طفرة العمران انتقل الكثيرون من إخوان مدينة نصر بل شرق القاهرة كلها إلى منطقة التجمع وكان من المنتقلين ممدوح الحسينى مسئول مدينة نصر ونائبه رفعت الحواط بله بعض أعضاء مكتب الإرشاد وقتها مثل مهدى عاكف ، وكان هؤلاء هم أول من حمل متاعه ورياشه وحط رحاله هناك ، مما دعا قيادات شرق القاهرة فى التنظيم إلى تحويل هذه المنطقة من الناحية الجغرافية التنظيمية إلى شعبة جديدة من شعب الإخوان المسلمين تتبع منطقة مدينة نصر إلى أن تقوى ويشتد عودها فتتحول إلى منطقة قائمة بذاتها فى مستقبل الأيام .. وبدأت مدينة نصر تولى هذه الشعبة أهمية خاصة ، ولا غرو فهى شعبة ستشهد سكن مهدى عاكف عضو مكتب الإرشاد الشهير ـ وقتها ـ عندما ينتهى من إتمام البناء الذى يشيده هناك ... وستشهد أيضا أموالا سيبذرها التنظيم على الأراضى والعقارات وسينتظرون غلتها ذات يوم... وبعد أن تكون الشكل التنظيمى للشعبة رأى بعضهم أن تقوم شعبتنا بدعم هذه الشعبة الوليدة ، واقترح فلاح سرور أن أقوم بصفتى رجل قانون بإلقاء سلسلة محاضرات قانونية فى الكتائب الإخوانية التى كثر انعقادها فى التجمع لتثقيف الإخوة بما لهم وما عليهم من الناحية القانونية إذا حم القضاء، وقُبض عليهم اعتقالا أو على ذمة قضية من قضايا الإخوان العديدة .. وأعددت بالفعل هذه المحاضرات

وجعلتها تدور حول التصرف الذى يجب أن يقوم به الأخ عند القبض عليه أو عند تفتيش منزله وحقوقه القانونية وما ينبغى عليه قوله أثناء تحقيقات النيابة معه أو أثناء استجوابه بمعرفة مباحث أمن الدولة ، وكان يصاحبنى فى هذه المحاضرات الأخ ممدوح الحسينى بحسب أنه مسئول منطقة مدينة نصر كلها والأخ فلاح سرور ، ثم قمت أثناء ذلك بإدارة وترتيب عدة كتائب انعقد بعضها فى بيت المهندس ممدوح الحسينى وكان المحاضر فى إحداها الدكتور عبد المنعم تعليب أحد قيادات الإخوان التاريخية وكان وقتها مسئول منطقة شرق القاهرة كلها أما موضوع المحاضرة فكان عن " تعظيم المحرمات " ، لم يكن الأمر قاصرا على التجمع الخامس وأهله فقط فقد عقدت فى بيتى عدة كتائب للإخوان حضر إحداها الدكتور سيد عسكر الذى كان وكيلا للأزهر الشريف وأصبح فيما بعد عضوا بمجلس الشعب ، وحضر فى أخرى الأستاذ محمد عبد المنعم مسئول الإخوان وقتها بمحافظة الإسكندرية .... وفى ذات الوقت طلب منى بعض الإخوة فى منطقة شبرا الخيمة إلقاء محاضرات عن تاريخ مصر الحديث وقد قمت بتوسيع نطاق هذه المحاضرات وتنقلت بها ومن أجلها إلى العديد من المناطق الإخوانية بالقاهرة والقليوبية ، وانشغلت بمحاضراتى هذه عن المحامين ونسيت أيامهم ولكن يبدو أن هناك من ظل يتذكرنى !!. وعلى حين غرة من الدعة والهدوء عادت السفاسف من جديد .

الفصل السابع

مسجون فى قلعة الإخوان

«وكأن عمر الإنسان سفينة استوت علي الماء لا يملكها إلا من خلقها وبث فيها الحياة ولا يديرها ويوجه دفتها إلا صاحبها ، وكأن قلب الإنسان كنز من المشاعر فإذا تألم تأوه وإذا تأوه عرف الناس ألمه لكنهم لن يشعروا بقدر الألم الذي يعانيه» .

سجن ملحق مزرعة طرة هو أحد السجون التابعة لسجن طرة العمومي إلا أن له خصوصية تميزه عن باقي السجون وتجعله وكأنه آخر عنقود مصلحة السجون ، فقد ظل قاصرا على استقبال المساجين السياسيين وعلى الأخص مساجين الإخوان المسلمين فضلا عن المساجين من رجال الأعمال والشخصيات ذات الحيثية ، أما من الناحية الإنشائية فهو عبارة عن مبنى فقير فقرا مدقعا من الخارج بحيث أنه يخلو من أى ناحية جمالية معمارية إلا أنه أقرب شبها لفيلا سكنية أهملها أصحابها وفرّطوا فى رونقها حتى أصبحت بالية المظهر... يتكون هذا المبنى العتيد من طابقين كل طابق به عشر حجرات - زنازين - ملحق بكل حجرة حمام خاص لها وتتسع الحجرة الواحدة لاخين بالكاد وقليل من حجراته يتسع لخمسة أفراد على أعلى تقدير ...عندما تدخل إلى هذا السجن المنعزل للزيارة تقابلك حديقة كبيرة غنّاء ازدانت بعدد من الأشجار والمزروعات النادرة التى أضفت على المكان قدرا من الهدوء والثراء الجمالى .. ولك أن تعلم أن مساجين الإخوان - خاصة هواة الزراعة منهم - قد ساهموا فى زراعة العديد من النباتات فى هذه الحديقة وكتب بعضهم اسمه على بعض الأشجار من باب " الذكرى الخالدة " كما قاموا بتحديث الحجرات وتبليطها ودهانها ومد حماماتها بالسخانات وتزويد حجراتها بأجهزة التليفزيون كما أقاموا مكتبة كبيرة اقتنوا فيها العديد من ذخائر الكتب ونفائس المؤلفات ، وقد اعتادت إدارة السجن على جعل هذا الملحق هو السجن المخصص للمساجين الذين صدرت ضدهم عقوبات ، أما سجن المزرعة نفسه فهو الذى يستقبل المحبوسين احتياطيا .

كان نوح ومجموعته من الإخوان قد سيقوا من سجن الاستقبال بطرة - ذلك السجن الذى قضوا فيه فترة الحبس الاحتياطى - إلى سجن الملحق الذى استقر بهم المقام فيه منذ أشهر عقب صدور عقوبة الحبس ضدهم ، ولم يكن من حظى بعد انتقالهم للملحق زيارة أى واحد منهم إلا مرة واحدة يتيمة

حيث زرت فيها مختار نوح وخالد بدوى ، وقد أفصحتُ فى تلك الزيارة لهما عن لواعج نفسى وشكوت جحودا وقسوة كانت وكأنها دين الإخوة وديدنهم ، وحكيت لهما باستفاضة عن تلك المواقف التى واجهتنى من الإخوان خارج السجن وجعلتنى أبدو فى داخلى وكأننى سجين الإخوان المسجون فى قلعة من قلاع التنظيم ، وعكّرت الماء الذى كان يجرى رائقا رقراقا بينى وبينهم ، وأظهرت لى الوجه الخفى لبعض قيادات الجماعة ـ ذلك الوجه الذى ما فتئ هذا الفريق يخفيه عن الجميع ويرتدى من أجل إخفائه ألف قناع ـ ثم انقطعت الزيارات بعد ذلك لفترة إلى أن حدثت فجأة انفراجة فى زياراتى للإخوة فقد استطعت زيارتهم بضع مرات في شهر يونيو من عام ٢٠٠١ على غير العادة ، وكأن هذه الزيارات كانت تعويضا سخيا عن فترة الغياب ... وكل شيء عنده بمقدار .

أصدقكم القول أن هذه الزيارات لم تكن مجردة من الأهداف والغايات ، ولم يكن هدفها بث الشجون والمشاعر ومؤازرة الإخوة فى محبسهم ودعم مشاعرهم ونفسياتهم فقط ، ولكن كان مرامها فى المقام الأول مناقشتهم فى بعض دعاوى قضائية رأينا ـ أنا وهم ـ أن أقيمها لهم من أجل الإفراج عنهم .

كان أول الغيث الذى تصورنا أنه سيساعدنا هو صدور حكم من المحكمة الدستورية قضى بعدم دستورية نوعية من الجرائم التى كانت مؤثمة فى قانون العقوبات وهى جرائم (الاتفاق الجنائى) .. وكان يحدونا الأمل أن ينسحب أثر هذا الحكم الدستورى على القضية التى حُبس بموجبها الإخوة فيتم الإفراج عنهم .

وجاء بعد الحكم الدستورى ما يسمى " انقضاء نصف مدة العقوبة " ، وهذا الانقضاء يعطى الحق لرئيس الجمهورية فى الإفراج عن المسجون إذا كان حسن السير والسلوك ، وكنا نترقب مع هذين الأمرين مرور ثلاثة أرباع مدة العقوبة التى تعطى الحق للنائب العام فى الإفراج عن المسجون وإنهاء العقوبة وفقا لشروط تتوافر فى حق الإخوة جميعهم ، وكنت قد أعددت بحثا قانونيا مطولا عن هذا الحق واقترحت عليهم أن أقيم دعوى بخصوصه عندما يحين الحين ويأتى الأجل المحدد .

ولأن الزيارات كانت فى مجملها قانونية ثقيلة الظل ـ إذ كانت المناقشات القانونية فيها تستغرقنا حتى يضجر منا ضابط السجن ويأخذ فى التثاؤب ـ

فقد اقتصرتُ فيها على مقابلة مختار نوح وخالد بدوى بحسب أنهما محاميان وأننا جميعا سنخوض فى القانون ، وبعد مناقشاتنا المستفيضة طلبا منى الإسراع فى إقامة تلك الدعوى القضائية التى تمخضت عنها أفكارنا بطلب بالإفراج عنهم لعدم دستورية المادة التى تم حبسهم بمقتضاها ، وطلبا أيضا أن أقيم دعوى أخرى بطلب الإفراج عنهم لمرور نصف مدة الحبس ، وكان خاتمة ما طلباه أن أضع اسم محمد طوسون على صحف تلك الدعاوى !! وكان هذا الطلب قد أثار امتعاضى إلا أننى وافقت عليه دون مناقشة ، فهذه هى رغبة أصحاب القضية ولا بد أن لهما ضروراتهم ... وأنهى مختار نوح جملة الطلبات قائلا : لابد يا أخى العزيز أن تحصل على تصريح زيارة جديد لمقابلة كل مساجين الإخوان المحبوسين معنا حتى يكون هناك إقرار نهائى من الجميع يدفعك إلى أن تمضى قدما فى إقامة الدعوى الثالثة التى تتعلق بالإفراج وإطلاق السراح عندما يحين موعد انقضاء ثلاثة أرباع مدة العقوبة .

وبعد أن انتهت الزيارة وذهبت إلى حال سبيلى حدث ما لم يكن فى الحسبان وما لم يجر على خاطرى أبدا .

طارق الفجر

فى الهزيع الأخير من الليل حين سجى انتظارا لرسل الشمس ، وقبل أن يضع الظلام أوزاره ويهمد خلف قافلة النور ، وقبيل أذان الفجر بهمسة انتفضت من نومى على طرق رتيب على باب بيتى ، لم يكن الطرق ثقيلا متواصلا فينبئ عن طبيعة الزائر ولكنه كان خفيفا رقيقا يدل على أن صاحبه جاء على استحياء كأنه يكاد ينصرف إلى حيث جاء ، وعندما فتحت الباب وأنا أفرك عينى وجدت أن الزائر هو الدكتور حسن عبد الحليم وهو أحد قيادات الإخوان المسلمين فى المنطقة كما أنه فى ذات الوقت نقيب أسرتى الإخوانية ، وقد أثارت هذه الزيارة المفاجأة دهشتى واستغرابى التى وصلت إلى حد الجزع .

والدكتور حسن عبد الحليم صيدلانى من جيل الوسط يحمل قلبا رقيقا ومشاعر مرهفة وعاطفة دينية مشبوبة وقد اشتهر بين أقرانه بالالتزام والجدية والدقة المفرطة فى تنفيذ التعليمات التنظيمية ، حيث يعتبر الكثيرون من

الإخوان ـ وفقا للآلية والمناهج التى تربوا عليها ـ أن طاعة القيادات والثقة فيهم عبادة لله سبحانه وتعالى ، وكان قد تعود لفترات على التواعد معى كى نلتقى فى صلاة الفجر فى أى من مساجد الحى ، إلا أنه لم يحدث أبدا أن باغتنى بزيارة فى مثل هذا الوقت دون اتفاق مسبق .

ودون أن يدخل إلى الشقة طلب منى الزائر الإخوانى أن أرتدى ثيابى فورا حتى نلحق بصلاة الفجر جماعة فى أحد المساجد بالحى ، وفى سيارتى ونحن فى الطريق إلى المسجد التزم الدكتور حسن بالصمت ولم ينبس ببنت شفة وانشغل بتلاوة أذكار الصباح حتى وصلنا إلى المسجد المنشود ، كانت نفسى قد حدثتنى ونحن فى الطريق إلى المسجد أن هذه الزيارة تبطن أشياء أسرها الأخ حسن فى نفسه ولم يبدها لى وقتها ، وبالفعل صدق حدسى ... فما أن انتهت الفريضة وفرغنا من ختام الصلاة حتى التفت الأخ إلى ناحيتى وقال لى وهو يكاد يهمس : يا أخ ثروت باعتبارى نقيبك فى الأسرة طلب منى الأخ ممدوح الحسينى أن أبلغك بأن هناك جلسة تحقيق ستنعقد معك صباح اليوم فى مكتبه الساعة الثامنة صباحا ويجب أن تكون حاضرا فى الموعد المحدد للأهمية .

فقلت له وقد اعترانى العجب واعترتنى الدهشة : " هكذا فجأة !! أليس من المفترض يا دكتور حسن أن يكون هناك تمهيد ؟ أليس من العدل أن يتم إخطارى قبل التحقيق بوقت كاف ؟ ثم يا أخى الحبيب ما هو موضع التحقي؟ ثم استطردت وكأنما أحدث نفسى :

" من هذا الذى يملك أن يفتش فى قلبى ويخترق ضميرى ويحاسبنى على ما أعتقد "

" أيملك أحدكم سفينة حياتى حتى يشاركنى فى إدارة قرارى وتوجيه دفة أفكارى "

" ما هذه القسوة التى جُبل البعض عليها وكأن قلوبهم قدت من الحديد وغُلِّفت من الصخر "

" أليس فيهم رجل رشيد ، أم أننا شجعناهم عندما وضعنا بين أيديهم تلك السلطة المطلقة التى كبّلوا بها شرايين قلوبنا "

وضع نقيبى يده على كتفى وكأنما يحنو عليّ وقال بلطف زائد وقلة حيلة بادية : " أنا أتمنى يا أخى أن ينتهى الموضوع على خير ولكن اعذرنى فمهمتى

مقصورة على إبلاغك بالموعد والمكان

وقد تلقيت التكليف قبل أن آتى إليك بلحظات معدودات فليس لى فى الأمر حيلة .

ثق أن الجماعة كالأم الرءوم لن تخذلك ، وإن خذلتك سنكون كلنا معك . " لن يقبل أحدنا أن تتعرض لظلم وإن ظلموك فستكون الجماعة حينئذ قد هجرت خيريتها ، وقتها سنهجرها ونغادرها إلى غير رجعة " .

شكرته باقتضاب وانصرف هو إلى بعض إخوة من شعبتنا كانوا ينتظرونه عن قرب وانصرفت بدورى وأنا أحفر فى ذاكرتى عن سبب دفعهم إلى إحالتى للتحقيق إلا أن يكون نبشا منهم فى الماضى القريب الذى لم يغادر قلوبهم وقبع منتظرا لحظة سانحة.

محكمة إخوانية

بحجرة مكتب المهندس ممدوح الحسينى حيث تتناثر الخرائط الهندسية وتختلط بكتيبات بها أذكار الصباح والمساء وكتب عن تاريخ الإخوان ، فى مقر شركته للمقاولات الكائنة فى عقار شاهق بأحد الشوارع الرئيسية بالحى الثامن بمدينة نصر كانت المحاكمة وكانت المحكمة.... جلس الحاج جودة شعبان رئيس المحكمة بين العضوين ممدوح الحسينى عضو اليمين ومجدى عبد الله عضو اليسار ... أما الحاج جودة فهو نائب رئيس منطقة شرق القاهرة وهى من أكثر المناطق الإخوانية اتساعا وعددا وأهمية ، كما أنه أحد أفراد الرعيل الأول من الإخوان وكان قد حُبس فى قضية "محاولة اغتيال عبد الناصر" عام ١٩٥٤ المعروفة بحادث المنشية حيث خضع وقتها لمحاكمة عسكرية قذفت به فى السجن سنين عديدة... فقد كان وقتها من رجال التنظيم الخاص .... وقد لبث فى سجنه إلى بدايات السبعينيات حين أفرج عنه الرئيس السادات مع من تم الإفراج عنهم من الإخوان ... وهو رجل فى أواخر العقد الثامن من عمره ، ضامر الوجه نحيل الجسد ، نظارته الطبية ذات العدسات السميكة تغطى نصف وجهه تقريبا ، له لحية خفيفة ويرتدى حلة صيفية شاحبة اللون ، يبدو من سيماه أنه لم ينل حظا من التعليم - توقف عن التعليم قبل الابتدائية - وكان فى مطلع شبابه وسابق أيامه قد انخرط فى مهنة الصباغة كعامل بسيط إلى أن تم سجنه فى منتصف

الخمسينيات ثم التحق بشركة الشريف للبلاستيك فى منتصف السبعينيات بعد أن خرج من محبسه إلى أن خرج على المعاش... يظهر من حديثه ضحالة خلفيته الثقافية ومحدودية أفقه ، أما عضو اليسار الأخ مجدى عبد الله فهو متوسط العمر متوسط الطول يميل جسده للامتلاء ، يرتدى حلة صيفية زرقاء تشبه الحلة التى يرتديها أفراد الأمن فى الشركات الخاصة والبنوك ، لم يستطع استكمال تعليمه العالى فاكتفى بالحصول على شهادة فنية متوسطة ، عمل لفترات في شركة الشريف للبلاستيك إلى أن تقوض بنيانها فهجرها إلى مشروع خاص شاركه فيه بعض الإخوان ، أما وقت المحاكمة فقد كان يشغل موقعا قياديا متميزا فى الجماعة تنوء به وبمسئوليته العصبة من الرجال أولى الفهم والإدراك وهو مسئول منطقة مصر الجديدة التى تضم صفوة الصفوة من الإخوان وزبدة مثقفيها ،أما عضو اليمين فهو المهندس ممدوح الحسينى مسئول مدينة نصر .

عندما ألقيت عليهم السلام بابتسامة موجوعة عاتبت نفسى فى داخلى أو بالأحرى عاتبتنى نفسى وأوجعتنى .. " كيف بالله عليك تقبل هذا العبث المقيت السخيف ؟!! "

" أأنت مسلوب الإرادة إلى هذا الحد أم أنك تعودت على قيود سجانك حتى أصبح السجن هو الحياة ؟ !! "

" أليس من الأكرم لك أن تنسحب من هذه اللعبة المهينة ؟ "

" قل لهم : لن ألعب وانصرف .. أو اتركهم فى غيهم يعمهون "

" فك سلاسلهم التى قيدتك ، فسلاسلهم التنظيمية لا قيمة لها فهى كقبض الريح أو كسراب خادع ساذج "

وعلى عكس ما دلت عليه نفسى الثائرة جلست أمامهم هادئا طيعا لا حول لى ولا قوة وكأن خضوع الإنسان للقيود والأغلال التى ألفها واستكان لها زمنا ، يطمس فيه نزعة الحرية ويجعله سلس القياد ، وهكذا يستطيع الطغاة قيادة شعوبهم .

هش الحاج جودة فى وجهى وقام باهتمام زائد يستقبلنى وتبعه أعضاء المحكمة الذين قبلوا كتفى بمبالغة غير مفهومة ، ثم دار حديث قصير بيننا عن أحوال الجو والزحام والمواصلات وأبدى الحاج جودة تبرمه من زيادة الأسعار ، وما لبث الحديث أن انعطف حول نقابة المحامين وأحوالها

وانتخاباتها الفائتة ونجاح الإخوان فيها ، وعند هذا الموضع قال الحاج جودة وهو يتعمد عدم النظر ناحيتي : ما هو موضوع خلافاتك يا أخي مع إخوانك في النقابة .

قلت له وأنا أنظر إلى موضع قدمي : هل هذا السؤال مجرد دردشة ؟ أم أنه تحقيق أو محاكمة ؟

قال وقد بدا عليه الانزعاج : محكمة ماذا والعياذ بالله ، أنا في مقام أبيك وهؤلاء إخوانك ونحن نتحدث معك لأن هناك شكوى مقدمة ضدك ، وأبوك الحاج مصطفى أمر بتشكيل لجنة لمتابعة هذا الأمر والوصول لوجه الحق فيه ونحن أعضاء هذه اللجنة .

قاطعته بابتسامة : يعني يا حاج جودة أنتم لكم سلطة توقيع جزاء على المخطيء .... هه ؟

قال بثقة : نعم

تابعت الحديث قائلا : إذن أنتم محكمة

تدخل الأخ مجدى عبد الله قائلا : ولتكن محكمة يا أخي فما الضير في ذلك ؟

قلت دون أن أنظر إليه : الحقيقة هناك قواعد للعدالة حض عليها الإسلام يجب أن تتبعها المحكمة

فبادرني الحاج جودة : لا إله إلا الله ... وهل نحن خالفنا الإسلام يا أخي الحبيب

استطردت : ينبغي أن يتم إخطاري بالمحاكمة وموضوعها قبل الجلسة بوقت كاف لأعد دفاعي فلا ينبغي أبدا مباغتة الشخص بمحاكمة لا يعرف أسبابها ... وأكملت : ثم أننا تحدثنا باستفاضة من باب الدردشة والمودّة قبل البدء في المحاكمة عن الانتخابات في النقابة فإذا كانت المحاكمة ستتضمن تلك الانتخابات فإن حديثنا عنها باطل وهو في الشرع استدراج لا يجوز

وهنا تدخل ممدوح الحسيني قائلا : ليس استدراجا يا أخي الحبيب يجب أن تحسن الظن في إخوانك

قلت وكأنني أعاتبه : لا علاقة لحسن الظن بما أقول ولكنها قواعد عامة يجب أن تتبع

فرد معقبا : عموما يا أخي سنعطي لك الفرصة التي تريدها ... خذ هذه

الورقة فهى تحتوى على موضوع الشكوى المقدمة ضدك وسنعقد غدا فى ذات الموعد والمكان جلسة أخرى لاستكمال الموضوع وستكون هى الجلسة الختامية إن شاء الله.

خطفت نظرة سريعة متعجلة إلى الورقة فوقع نظرى على عدة اتهامات ، منها اتصالى بالمفكر الإسلامى دكتور سليم العوا وترددى على جمعية مصر للثقافة والحوار التى يرأسها ، وصلتى بأعضاء حزب الوسط ، ومخالفتى لقرار منعى من الخروج من بيتى الصادر من الحاج مصطفى ... فاعترتنى من جملة هذه الاتهامات دهشة تاريخية لا أظن أن أحدا اعترته مثلها من قبل إلا أننى تجاهلت ما قرأت وقلت : وأريد أيضا أن تطلعنى على ما قدمه أصحاب الشكوى من أدلة ضدى حتى أرد عليها وأفندها ... فالبينة على من ادعى واليمين على من أنكر

قال الحاج جودة متدخلا : أما هذه فلن نستطيع .. ليس من حقك الإطلاع على أدلتهم ... ولكن قل ما عندك وقدم ما لديك من أدلة ... يكفى أن تعرف أنهم أحضروا شهودا من الإخوان شهدوا ضدك أمامنا ... وشهودا من غير الإخوان كتبوا شهادتهم ووقعوا عليها .

قلت وقد تملكتنى الدهشة : هذا لا يجوز يا أخى أبدا ...... سماعك للشهود فى غيابى يخالف قواعد الإسلام فى المحاكمة ... مبدأ مواجهة الأخصام ومواجهة الشهود من لزوميات المحاكمة العادلة ... ثم من المفترض أن أرد على شهادة هؤلاء الشهود .. فكيف أرد على ما جهلت أصله وطبيعته وفحواه ؟ هل هذه عدالة ؟ وهل ما يحدث هنا له علاقة بالإسلام ؟

قال الحاج جودة دون أن يرمش له جفن وقد نفد صبره : والله هذا هو ما عندنا وهذه تعليمات من الحاج مصطفى بنفسه ونحن لا نستطيع مخالفتها ... جهز دفاعك وسننتظرك فى الغد ... ثم قام نصف قومة وهو يمد يده بالسلام وتبعه عضوا المحكمة .

وتركتهما وأنا أحاول أن أتنسم عبير الحرية فقد نازعتنى نفسى أن لا أعود لهم مرة أخرى ... ما أعظم الحرية .

عودة الطير إلي قفصه

الشقة التي يقطن فيها الدكتور حسن عبد الحليم الصيدلاني نقيب أسرتي في الإخوان تقع في الدور الأرضي في عقار قديم متهالك من العقارات التي شيدها أصحابها في بداية نشأة حي مدينة نصر ، وقد شهدت هذه الشقة العديد والعديد من الكتائب واللقاءات الإخوانية وجلس معنا فيها أكبر قيادات الإخوان في مناسبات متنوعة ، وفي حجرة المعيشة البسيطة التي تعوّد الدكتور حسن على استقبالنا فيها جلست قبالته أبحث عن كلمات مناسبة ، كنت قد اعتزمت ترك الجماعة بشكل نهائي ورأيت أن ألقى على مسامعه ذلك الأمر الذي انتويته ، وإذ كنت أبحث عن مدخل لائق للحديث بادرني وهو يقلّب السكر في كوب القرفة : على فكرة .. أنا معك في أنه يجب أن تعرف كل تفصيلات الشكوى وأدلة إخوانك التي قدموها ضدك ... فإخفاء هذه الأدلة عنك ليس من العدل .. كما أنه تعجيز لك .

قلت متعجبا : هل عرفت ؟

قال مؤكدا : نعم جلست مع ممدوح وعرفت تفصيلات ما حدث بينكم اليوم

قلت وأنا أتناول منه كوب القرفة : وما رأيك ؟

قال وهو يقلّب صفحات كتاب التقطه من على المنضدة متشاغلا به : "هذا تهريج يا أخي"

"ما هذا الذي يحدث بين الإخوة ؟"

"لماذا نُقَطع لحم بعض ؟"

"يبدو أن الدنيا أخذتنا وغرّتنا !!"

"ما يحدث يرفضه كل صاحب قلب سليم"

ثم ناولني الكتاب الذي كان بيده قائلا : هذا كتاب مدارج السالكين لابن القيم اقرؤه بإمعان لعله ينير أمامك الطريق ويفتح في قلبك مجالات للعفو عمن ظلمك .

قلت وقد استقر في فهمي أنه أدرك غايتي من زيارتي فأراد بكلماته هذه أن يقطع الطريق أمامي حتى لا أتخذ أي قرار يجمح بي خارج الجماعة : أشكرك ... وقد أسامحهم وأعفو عنهم ليس في هذا من شك ... ولكني أذكر تلك الكلمات التي قلتها لي عقب صلاة الفجر من أن الجماعة إذا سارت في

طريق الظلم تكون قد " فقدت خيريتها " .. أظن أنه ثبت أن الجماعة تسير فى طريق الظلم يا دكتور .

قال مهونا من الأمر : يا ثروت يا " خويا " أنا وأنت وكلنا نرفض ما يحدث لكنها مجرد حالة فردية ، لا تصلح للقياس عليها ، أما الظلم الذى يُفقد الجماعة خيريتها فهو " الظلم إذا عم " .

قاطعته بابتسامة مندهشة : ليست حالة فردية وليست حالتى فقط ، أستطيع أن أحكى لك الآن عشرات الحالات فى منطقة شرق القاهرة فقط لم تراع فيها الجماعة قواعد العدالة .... ثم انطلقت فى الحديث حتى لا أدع له فرصة لمقاطعتى وكأننى لن أتوقف أبدا .

" عندك أخونا الدكتور حمدى عبد العاطى الذى كان حاضرا فى معسكر من معسكراتنا وأثناء حصة المشى قال لرفيقه فى السير إن الحاج مصطفى مشهور يرتكب العديد من الأخطاء بسبب كبر السن وإذا بأخ كان يسير خلفه يتنصت على هذا الكلام ثم يقوم بإبلاغ " إخوانا فوق " بخبر هذا الذى قاله حمدى الذى هو محض رأى من حقه أن يبديه وتم عقب ذلك إحالة أخينا حمدى لتحقيق إخوانى حيث حقق معه أحد الإخوة من المحامين من أعضاء مجلس النقابة ثم صدر القرار الذى تعلمه بتجريد حمدى من موقعه كعضو فى المكتب الإدارى للشعبة عقابا له على أنه قال رأيا ... هل هذه خيرية ؟ "

" وتعرف أنت طبعا خبر أخين من الإخوان من شرق القاهرة ، ظلا شركاء لسنوات فى شركة تجارية ، وحدث أن قام أحدهما بسرقة نصيب الآخر فى الشركة فاشتكاه المسروق للإخوة فقام الإخوة عقب الشكوى بإحالة الأمر لمحكمة إخوانية رأسها الدكتور عبد المنعم البربرى أمين صندوق نقابة الأطباء وكان معه فى هيئة المحكمة المرحوم مأمون ميسر المحامى الإخوانى المعروف ومعهما أحد المحامين من أعضاء مجلس النقابة وأصدرت اللجنة قرارها بإدانة السارق إدانة صريحة قاطعة ... إلا أن الأمر لم يرق لصهر السارق الذى يشغل موقعا قياديا كبيرا فى منطقة شرق القاهرة - وهو رفيق عمر الحاج جودة وتابعه فى المنطقة - فقام الإخوة بإلغاء هذا الحكم إرضاء للرجل وتشكيل محكمة أخرى برئاسة الحاج جودة وانتهت المحاكمة فى حكمها الجديد إلى تعديل الحكم إلى أن الحسابات فقط غير منضبطة وأن السارق - لعدم ضبط الحسابات - أخذ ما ليس له من حق دون أن يعلم أن ما

أخذه ليس من حقه ، وأنه يجب على الأخ المسروق أن " يستعوض الله " فيما أخذه السارق ... وأن نتيجة الحكم ستظل سرية لن يتم نشرها على الإخوة لعدم المساس بسمعة السارق وعندما اعترض المسروق المجنى عليه على هذا وقال : " سأستعوض الله بلا شك ولكن إذا صح أن تكون جلسات المحاكمة سرية إلا أن الحكم يجب أن يكون علنيا وهذا من قواعد العدالة فى الإسلام ، فلم يقبل الإخوة ذلك .. فما كان من الأخ المسروق المجنى عليه المظلوم إلا أن هجر الإخوان إلى غير رجعة ... هل هذا عدل ؟ "

وعندما هم حسن أن يقاطعنى استطردت دون أن ألتفت لمقاطعته " وأولئك الإخوة الذين احتكروا معارض السلع المعمرة بنقابة المهندسين بأمر مباشر من المرشد وليس بأمر مباشر من نقيب المهندسين فأصبحوا من أصحاب الملايين ... هل هذه خيرية ؟ "

" وما حدث منا تجاه الإخوة مجموعة حزب الوسط وتلك الحرب غير العادلة التى وجهنا سهامها نحوهم حتى أن المستشار الهضيبى قال لنا فى لقاء هنا بمدينة نصر : أننى أستطيع أن أجعلهم يسيرون فى الشارع " بلابيص " هل هذا عدل ؟ "

" والقرار الصادر من الحاج مصطفى مشهور باعتبار الدكتور السيد عبد الستار المليجى ليس من الإخوان لمجرد أنه عقد ندوة فكرية فى مكتبه وقام أحد الحاضرين فى الندوة من غير الإخوان بانتقاد سياسات الجماعة وانتقاد تصريحات الحاج مصطفى التى أطلقها فيما يتعلق بالجزية والأقباط فكان جزاء من أقام الندوة أن طردوه من الجماعة شر طردة بلا أخلاق وهو من هو فى السبق والفضل حيث قدم للجماعة عمره كله ... هل هذا عدل وهل تلك خيرية "

وكأننما أفرغت جزءاً من شحنتى فتوقفت عن الكلام ألتقط أنفاسى ، وهنا تحدث حسن بهدوء قائلا : أنا معك فى كل ما قلت ومع ذلك فهى حالات فردية لأننى أستطيع أن أسرد عليك آلاف المواقف الطيبة للجماعة ، وفى الفقه يا أخى طالما أن النجاسة لم تغير طعم أو لون الماء الطهور فهو طاهر ، وأظن أن ما حدث لا يمكن أن ينجس هذه الجماعة أو يمس خيريتها رغم اعتراضنا عليه .

وضعتُ الكتاب جانبا وقلت وقد ارتفعت نبرة صوتى دون قصد منى : هذا

قياس مع الفارق يا دكتور ، وحتى لو اتفقت مع قياسك جدلا فإن الحنفيين يذهبون إلى أن هناك من النجاسات ما تنجس الماء الطاهر حتى ولو لم يتغير لونه أو طعمه أو رائحته ، ومع ذلك من قال إن الفساد لم يطغ وإن الظلم لم يعم ؟.. يا عزيزي نحن في منطقة شرق القاهرة ... هل تعرف ما معنى شرق القاهرة ؟... ثم استطردت وأنا أضغط على الحروف بنبرة حادة : شرق القاهرة هي قلب الإخوان.... قلب الإخواااان ... وما يحدث في القلب ينتقل إلى جسد الجماعة كله ... ينتمي إلى شرق القاهرة القيادات التي تمسك خيوط الجماعة وتحركها كما تشاء .. يوجد معنا مصطفى مشهور ومأمون الهضيبي ومهدي عاكف ومحمود عزت وخيرت الشاطر وعبد المنعم أبو الفتوح وحسن مالك وأحمد شوشة .

قال حسن بهدوئه المعتاد وهو يقاطعني : وأستطيع أنا أيضا أن أكمل لك العد ... فأنا أوافقك ولكن ما معنى هذا الاستدلال ؟

قلت وقد انخفض صوتي : معناه أننا منطقة تحت الشمس ، فلسنا في شعبة مختفية في دهاليز كفور ونجوع مصر لا يعلم أحد شيئا عما يتم فيها ...إذا أردت أن تعرف ما يحدث في الأطراف والأوصال فانظر إلى القلب .. ما يجري هنا من مظالم ومفاسد يتم تحت سمع وبصر قيادات الإخوان الكبيرة ... ليس تحت سمعهم وبصرهم فقط ولكن بموجب أوامرهم أيضا ... كأمر منعي من الخروج من بيتي مثلا أو أمر مقاطعة مجموعة الوسط وعدم إلقاء السلام عليهم وأمر طرد عبد الستار المليجي وغيرها من الأوامر التي تنضح من الظلم ... هذا يدل يا سيدي على أن رأس السمكة فسد ... والجماعة تفسد من رأسها كالسمكة ..فإذا فسد الرأس فسد الكل .. هذا يدل على أن الإخوان الذين وضعنا فيهم الأمل في الإصلاح يحتاجون إلى إصلاح ... ثم قلت منفعلا وأنا أنهي الحديث : يا رجال الإصلاح يا ملح البلد .. من يصلح الملح إذا الملح فسد ؟

نظر لي الدكتور حسن وقد أصيب بخيبة أمل إلا أنه قال بإصرار دون أن ييأس : إذن فلنصلح معاً الملح ولنعد الماء إلى طهوريته ... نحن نحتاجك ونحتاج عقلية مثل عقليتك لنصلح الجماعة ... هل تقبل أن تترك جماعتك في يد من يفسدها ؟

وكأنني أحدث نفسي قلت وقد اغرورقت عيني بالدموع : أخشى إن ظللنا

على وهم الإصلاح أن نستيقظ ذات يوم فنجد قطار الجماعة قد مضى بعيدا عنا وسار على قضبان الفساد ونحن لا نملك إلا أن يدهسنا القطار إن اعترضنا طريق فساده ، وقتها سيرجمنا الركاب الذين يغمضون عيونهم عن الحقيقة ، وسيظنون أننا نحارب الإسلام لأننا فى نظرهم نقطع دابر جماعة تدعو للإسلام .

قال برفق وقد اغرورقت عيناه بالدموع كرجع لدموعى : لن يحدث هذا وسنكون معاً ... إذا تركت الجماعة سأتركها معك .. فكن معنا الآن ولا تتركنا واحضر جلسة المحاكمة غدا ولن يستطيع أحد أن يفعل معك شيئاً .

قلت وقد تحولت دفة اقتناعى إلى وجهة لم أظنها :سأبقى وسأحضر .

وسبحان مقلب القلوب ، خرجت من بيت حسن مفعما بمشاعر متناقضة مضطربة تراوحت بين تلك الفرحة الطفولية التى تنتاب الفرد منا حين يمارس الجسارة والإقدام وهو يواجه الفساد وكأنه فى مغامرة من المغامرات اللذيذة الشيقة .... وبين خوفى من المجهول الذى قد تتمخض عنه الأحداث .. إلا أن حب البقاء والمواجهة غلب على رغبة الخروج والخوف من المجهول ، فتولد عندى إصرار بالبقاء فى الجماعة ومواجهة طغمة الفاسدين ، إلا أننى لم أكن أعلم ما أخفاه القدر من غرائب لا يتوقعها عقل أحد من الأسوياء .

استكمال المحاكمة الإخوانية

أمسك الحاج جودة بقارورة المسك وأشار لى إشارة تعنى أن أقرب إليه يدى ، وعندما قدمت له اليمنى دعك على ظهر كفى بتلك الكرة المستديرة التى تعلو القارورة فانساب عليه قدر من المسك .

ــ جزاك الله خيرا يا حاج وطيبك بطيب الجنة إن شاء الله .

ــ نحن وإياكم إن شاء الله .

ابتسم المهندس ممدوح الحسينى وهو يقول : ابسط يا عم لقد نلت بركة الحاج وهى بركة لو تعلم لا ينالها إلا المقربون .

تضاحك الجميع وشاركتهم ببضع ضحكات مغتصبة ثم ساد الصمت بيننا كأنهم يبحثون عن كلمات مناسبة يبدأون بها إلى أن فتح الله على المهندس ممدوح فقال وهو يغطى تثاؤبه بظهر كفه : أنا أرسلت من يحضر لنا طعام الإفطار ... دقائق وسيحضر إن شاء الله .

فقال الحاج جودة : بالهناء والشفاء أنا صائم .

وبعد برهة يسيرة دخل أحد الإخوة من شعبتنا ممن يعملون فى مكتب المهندس ممدوح وهو يحمل صينية عليها لفائف الطعمية والفول وعندما بدأنا فى تناول الطعام ألح المهندس الحسينى على الحاج جودة كى يقطع صيامه ويشاركنا إفطارنا فأخذ الحاج جودة لقمة وقال مبتسما : سأقطع صيامى وأشارككم من أجل الأخ ثروت فقط ... ثم أردف : بسم الله .. اللهم بارك لنا في ما رزقتنا وقنا عذاب النار .... وبعد أن مضغ اللقمة وابتلعها بأناة أخذ ثلاث رشفات من كوب الماء ثم قال بابتسامة رضا : الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين ... ثم أردف وابتسامته تزداد اتساعا : ثم جعلنا من الإخوان المسلمين .

ضحك المهندس ممدوح ضحكة إعجاب وقال : الله ... الله عليك يا حاج ... ثم استدار موجها الحديث لى : تعلّم يا أخ ثروت من عمنا الحاج .... نعمة هى أن نكون من الإخوان يجب أن نشكر الله عليها ... نعمة هى أن نكون مع إخواننا نسمع منهم ونطيعهم ونلين بين أيديهم .

ابتسمت دون أن أعقب ... وبعد أن انتهينا من طعامنا دخل أحد الإخوة يحمل صينية عليها بضعة أكواب متنوعة ما بين الشاى والقرفة والينسون وبجوارهم قدح من اللبن لمن أراد أن يخلط شايه أو قرفته باللبن ....وبدأت جلسة المحاكمة .

قال الحاج جودة : الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ... يا أستاذ ثروت ..

أتسمح لى أن أبدأ فى أسئلتى ؟

ـ تفضل على الرحب والسعة .

ـ لماذا يا أخى خالفت قرار إخوانك بخصوص انتخابات نقابة المحامين ، التى جرت مؤخرا ووقفت مؤيدا لهذا الذى يدعى عاشور ضد الآخر الذى وقع عليه اختيار الإخوة ... رجائى عطية ، وكيف طاوعك قلبك أن تقف ضد قائمة إخوانك

ابتسمت وأنا أغوص فى أعماقى كى أستخرج طاقة الصبر من داخلى :ألست معى يا حاج أن الصوت فى الانتخابات أمانة ؟

أجاب الحاج جودة بصوته الخشن المرتعش : ليس فى هذا شك يا أخى .

قلت مستطردا : وشهادة أيضا

أومأ الرجل برأسه كعلامة بينَة منه على الموافقة فاستكملت كلامي : وهل يجوز لأحدنا أن يُملى على الآخر شهادته ؟ أيجوز في حكم الشرع يا سيدى أن أطلب منك أن تشهد أمام القاضى شهادة معينة ؟ أيجوز أن يتسلط أحدهم على قلبك وعقلك ويجبرك على شهادة يريدها ..؟ ترى لو قلت لك اذهب للمحكمة واشهد بأن فلانا ضرب فلاناً وأنت تحمل فى جوانحك شهادة أخرى .. أتبيع دينك وتشتد بدنيا غيرك ؟

قال الحاج جودة مرتبكا : ولكنها ليست شهادة كشهادة المحكمة ... ثم نظر إلى المهندس ممدوح مستنجدا ثم قال : أليس كذلك يا ممدوح؟.

تنحنح ممدوح وابتسم وقال متجاهلا سؤال الحاج : أيعنى هذا يا أستاذ أنك تشكك فى اختيارات إخوانك ؟

قلت بحسم : يا أخى أنا لا أشكك ولكن أتحدث عن الأصل .. بغض النظر عن التفصيلات ... هذا أمر لا يجوز أن يكون محل مساءلة أو محاكمة منكم لى لأنها شهادة ... وبالمناسبة هى شهادة بمعنى الكلمة يا حاج ، فأنا أشهد أمام الله سبحانه وتعالى - باختيارى هذا - أن فلاناً أصلح من فلاناً لهذا الموقع، والشهادة يا سيدى يملكها صاحبها .. ولا يحق لأحد من أهل الدنيا كائنا من كان أن يحاسبنى على شهادتى تلك... فأنا أشهد عن نفسى ولا أشهد نيابة عن الإخوان (كل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه) أما اختيارات الإخوان فيسأل عنها أصحابها ... أنا أشهد أن فلاناً حفيظ عليم أو غير ذلك ، ولا شأن لى بشهادة الآخرين فالله سيسألهم عنها ، ولا يجوز لأحد أن يجبرنى على أن أشهد بما يريد هو .. هذا ليس من الدين يا شيخنا .

زم ممدوح شفتيه ثم نظر إلى الحاج جودة كأنما يستحثه على الانتقال إلى سؤال آخر فتناول الحاج جودة كوب الماء ورشف منه رشفة ثم قال : شهد أحدهم أمامنا يا أخ ثروت أن الأخ مختار كان يحرضك على الوقوف ضد قائمة الإخوان من داخل سجنه وأنه اتفق معك على خطة اسمها تصدير القلق فما ردك دام فضلك .

وقبل أن أجيب تدخل المهندس ممدوح قائلا : " لماذا يقيم الأخ مختار الدنيا ولا يقعدها بسبب حبسه يا أخى ؟"

إن أعجب فعجبى ممن يملأ الدنيا ضجيجا عند حبسه "

" أهو أول من يُحبس من الإخوان ... فليُحبس يا أخى هل ستتهدم الدنيا؟!!"

" ألا يعلم أن السجن هو معسكر من معسكرات الإخوان ، وأن اسمه ما زال مكتوبا بالقلم الرصاص من لم يُحبس بعد من الإخوان ؟ "

تعجبت من تلك النبرة الهجومية التى أظهرت لى أن هناك من أفسد قلب هذا الرجل على أخيه المحبوس فتجاهلت هجومه ووجهت كلامى للحاج جودة : يشهد الله أن مختار لم يحرضنى على الإخوان ومن شهد بذلك كذب ، وهى شهادة زور وأتمنى أن أواجه شاهد الزور هذا ولكننى أظن أنه لن يقوى على مواجهتى ...أما عن خطة تصدير القلق فهى خطة وضعها الإخوة كلهم فى السجن وتستطيع يا حاج أن ترسل للسجن من يسأل الدكتور محمد بديع أو الدكتور محمد بشر فى هذا الأمر وهما أعضاء مكتب إرشاد وأظن أن تلك الخطة من بنات أفكارهما مع باقى الإخوة الذين معهما فى السجن .

فاستدار الحاج جودة إلى ناحية المهندس ممدوح وأشار له إشارة ذات مغزى ثم تحوّل بوجهه ناحيتى وهو يقول :

منذ متى وأنت تعرف الأخ سليم ؟

قلت متخابثا : الأخ سليم !! من هو الأخ سليم ؟

قال مستنكرا : الأخ سليم العوا !!

وكأننى أصحح له قلت وأنا أقطب جبينى : آه .. تقصد الدكتور محمد سليم العوا ... أعرفه منذ زمن فهو شخصية شهيرة فضلا عن أنه من المحامين الكبار فى مصر كما أنه مفكر إسلامى شهير وقد كان محاميا للإخوان فى القضايا العسكرية عام ١٩٩٥ وما بعدها وأظن أن إخواننا يلجئون إليه فى الملمات .

تدخل المهندس ممدوح قائلا : الحاج جودة يسأل عن صلتك أنت به ؟

قلت متعجبا : صلتى به جيدة ... ولكنى لا أفهم مغزى السؤال !! .

أجاب المهندس ممدوح : يا أستاذ ثروت هناك أمران ... الأمر الأول هو أن الأخ سليم العوا نشر مقالا فى جريدة الأهرام أشار فيه إلى قرار منعك من الخروج من بيتك .. فكيف عرف سر هذا القرار رغم أنه من الأسرار التنظيمية التى لا يجوز البوح بها أبدا ؟ فهل أنت الذى أخبرته بهذا القرار ؟ أما عن الأمر الثانى فهناك من أخبرنا أنك تتردد على محاضرات الأخ سليم

فى جمعية مصر للثقافة والحوار ... ولذلك نريد أن نعرف منك صحة هذا الأمر .

أجبت وأنا أبدى تعجبى : أما عن الأمر الأول فأريد أن أسأل بدورى ... هل قال لكم الدكتور سليم أننى أنا الذى أخبرته عن أمر منعى من الخروج من بيتى ؟

قال الحاج جودة : لا لم يقل لنا ولم نسأله .

فقاطعه المهندس ممدوح موجها الحديث لى : ولكن منطق الأمور يقول إنك أنت الذى أخبرته ... وإلا من الذى أخبره إذن ؟

قلت مستفهما : يعنى هذا تخمين أو حدس اعتمد على منطقك أنت هه ؟

قال : نعم .

قلت : أهل الممكن أن يكون أحد من الإخوان ممن يرتبطون معه بصلة قوية قد أخبره ؟... هل هذا وارد أم أنه مستحيل ؟

فقال : وارد طبعا ... أنا قلت أن ما لدينا فى هذا الشأن هو مجرد حدس .

قلت بحسم : وهل يجوز يا مولانا فى هذا الموضع ، موضع الحكم بين الناس ، استخدام الظن أو الشك أو التأويل أو التخمين ؟ (إن الظن لا يغنى من الحق شيئا)

نظر لى الحاج جودة متفرسا ثم قال : يا أستاذ ثروت ... أأنت قلت للأخ سليم أم لم تقل ؟... هذا هو السؤال ؟

خطر لى خاطر بعث فى داخلى نوبة من الضحك تحكمتُ فيها وكتمتُها قبل أن تخرج إلى الحياة ثم قلت : أقسم بالله يا حاج جودة أننى لم أقل للأخ سليم شيئا عن هذا القرار .

بدت الحيرة على وجه الحاج جودة وأخذ ينظر إلى يمينه تارة حيث المهندس ممدوح وإلى يساره تارة أخرى حيث الأستاذ مجدى وكأنما يستنجد بهما ثم قال وكأنه يتأكد : أنت أقسمت ... هه ؟

قلت : نعم أقسمت ...ثم استطردت : وأنا صادق فى قسمى .

حملق الحاج جودة فى وجهى لبرهة كأنما يسبر غورى ثم قال : ننتقل للنقطة الثانية ... هل تتردد على الجمعية الخاصة بالأخ سليم ؟

قلت وكأننى أضيف إلى معلوماته : تقصد جمعية مصر للثقافة والحوار

طبعا

قال وهو يقدح زناد فكره : نعم هى .. أليس كذلك يا ممدوح ... هى جمعية الحوار والثقافة بالقطع ... أم هناك جمعية غيرها يا ممدوح ؟

قال ممدوح مؤكدا : طبعا هى فلا يوجد غيرها

قلت متباهيا : أنا عضو فى هذه الجمعية وأحضر كل محاضرات الدكتور سليم وهو يعطينا محاضرات فى الفقه والمذاهب الفقهية ويحدثنا عن المعتزلة والأشاعرة والشيعة وهى محاضرات رائعة ويا ليت الإخوان كلهم يحضرونها ... أتمنى أن تزورنا فيها يا حاج جودة وأثق أنك ستستمتع أيما استمتاع .

قال الحاج جودة ممتعضا وقد بدا الاستنكار على وجهه : معتزلة !!... أشاعرة !! مالنا وهذه الأشياء يا بنى .. هذه أشياء تفتن العقول ... من أراد الدراسة فليذهب إلى الأزهر حيث العلم تماما كما فعل المهندس ممدوح الحسينى ... أخوك ممدوح لديه أضعاف العلم الذى عند سليم هذا ... يا أخى خذ من ممدوح ... خذ من إخوانك فهم ينهلون من معين البنا وما أدراك ما معين البنا ولا تأخذ أبدا من خارج الإخوان مهما كان قدر من ستأخذ منه .... ثم هل استأذنت من أحد قبل الذهاب لهذا الرجل ؟

قلت وأنا أتلكأ فى الإجابة : لا لم أستأذن فهذا محض نشاط من حقى أن أمارسه كما أشاء ... فكما أذهب إلى النادى وإلى المصيف وإلى الـ

قاطعنى قائلا : يا أستاذ ... ألا تعلم أن كل حركة من حركاتك يجبْ أن تكون تحت نظر الجماعة وموافقتها .. ألا تعلم أنك يجب أن تستأذن فى كل شيء ... ثم استدار لممدوح قائلا : أهملتم التربية يا باشمهندس ... وعاد بوجهه إلى ناحيتى مكملا : ألا تعلم أن الأخ سليم هو الذى حرض مجموعة الوسط على الإخوان وأصبح محاميهم ؟ فكيف تذهب إليه وقد فعل هذا !!

قلت وأنا أبدى اندهاشى : معقولة !! أفعل هذا ؟

وبطريقة اقرب للاستنكار قال ممدوح الحسينى : أو لم تعلم هذا يا أخ ثروت ... أو لم تسمع عنه أو لم تقرأ فى الصحف عن رعاية سليم العوا لهؤلاء المطاريد ؟ أو لم تعرف أن المستشار مأمون لا يحب هذا الرجل لأفعاله تلك ؟

قلت بحسم : هذه موضوعات لا نتحدث فيها ولم يثرها أحد فى الجمعية ... كما أننى لا أهتم بتداعيات موضوع الوسط .. ثم أن مسألة حب المستشار

مأمون له أو عدم حبه هى من خبيئة نفسه ... يا باشمهندس أنا لا أعلم خائنة الأنفس وما تخفى الصدور .. وحتى لو كان المستشار لا يحبه مالى أنا وهذا الموضوع ؟

زم ممدوح شفتيه ثم قال : دعك من الحب والكره .. ثم استطرد مستفهما : ولكن مجموعة الوسط أعضاء فى الجمعية أليس كذلك ؟

قلت : ليسوا أعضاء فقط ولكن أعضاء فى مجلس الإدارة أيضا هل فى هذا شيء ؟

وكأنما ظن الحاج جودة أن إجابتى هذه هى الحبل الذى التف حول عنقى .. وأنه آن الأوان لإنهاء المحاكمة باعتراف رسمي فتدخل موجها حديثه للمهندس ممدوح : إقرأ يا ممدوح الاتهام الثانى .

نظر ممدوح فى ورقة أمامه وقال وكأنه ينطق قرار اتهام : توافرت أدلة فى حق الأستاذ ثروت على أنه على صلة قوية بمجموعة حزب الوسط ويتردد عليهم بانتظام وذلك بالمخالفة لقرار الحاج مصطفى وقرار المستشار مأمون الهضيبى بمنع كل الإخوة من التواصل مع هؤلاء بأى صورة ومنع كل الإخوة من إلقاء السلام عليهم أو رد السلام إذا التقوا بهم قدرا فى أى مكان بلا ترتيب مسبق .

نظر لى الحاج جودة من وراء نظارته متخابثا ثم قال : ها ... ماذا ستقول فى هذه يا أستاذنا أظنك الآن قلت بفيك أنك تقابلهم فى جمعيتكم وطبعا تجلس معهم وتشاطرهم الحديث .

كانت نظرة الحاج جودة المشوبة بابتسامة نصر توحى أنه حاصرنى وأننى لا محيص ساقع فى حفرة سؤاله مهما حاولت النجاة.

لم أنتظر أو أتمهل فى الإجابة فقد بادرته قائلا : يا حاج جودة سؤالك يحتاج استفهاما منى .

ـ استفهم كما تشاء

ـ أولا أريد أن أعرف متى صدر قرار الحاج مصطفى والمستشار مأمون ، ومن الذى قام بإبلاغى به ممن هم أعلى منى فى التسلسل التنظيمى ولهم على حق الطاعة ؟ .

ـ صدر منذ بداية الأزمة التى يعرفها الكل ولا يجهلها أحد .. وتم إبلاغ المناطق كلها به .

ـ عفوا يا حاج أنا أعرف كل تفصيلات الأزمة وأعرف غضبة إخوانى على تلك المجموعة بل انعقدت كتيبة عندنا حضرها الأستاذ مسعود السبحى سكرتير المرشد وشدد النكير فيها على الوسط ورجاله وعاب عليهم خروجهم عن جادة الصواب وحكى لنا عن نزقهم وتشهيرهم بالجماعة فى الصحف ، والأكثر من هذا تقابلت ومعى بعض الإخوة مع المستشار مأمون وحكى لنا أمر هذا الانشقاق لكن لم يقل أحد شيئا عن تلك المقاطعة .. فقط أخبرونى عن أن الدكتور السيد عبد الستار المليجى ترك الإخوان إلا أننا يجب أن نقابله بالتوقير اللازم وهو ليس من مجموعة الوسط .. ولذلك أريد أن أعرف من الذى أبلغنى بهذا القرار ؟ فى القانون يا حاج (لا عقوبة إلا بنص)... وفى الشريعة .. (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) .

التفت الحاج جودة للمهندس ممدوح قائلا بنفاد صبر : ما الحكاية يا باشمهندس ألم تخبروا الإخوة بالقرار ؟

قال ممدوح بصيغة التأكيد : لا طبعا ... الكل يعرف ... فلقد طلبنا من كل مسئول شعبة إبلاغ شعبته .

وعلى الفور تناولت هاتفى المحمول وأعدت له بطاريته التى كنت قد انتزعتها لدواعى الأمن وناولت الجهاز لممدوح وأنا أقول له : اتصل بمسئول شعبتى وقت أزمتنا مع الوسط ودعه يحضر هنا ونقسم كلانا على ما إذا كان قد أبلغنى أم لم يبلغنى .

فقال ممدوح بل سأستفهم منه بطريقتى ... انزع بطارية هاتفك مرة أخرى يا أخى .. ثم أمسك بورقة وقلم وكتب بضع كلمات وخرج مسرعا من الحجرة وحين عاد بعد دقيقة قال موجها حديثه للحاج جودة : أرسلت أحد الإخوة من العاملين بمكتبى بورقة فيها هذا الاستفهام وسيحضر بالإجابة فورا .

تنهد الحاج جودة وأخرج علبة دواء من جيبه وأخذ من العلبة حبة صغيرة وضعها تحت لسانه ... فقال له المهندس ممدوح : أجهدناك يا حاج كان من المفروض أن يكتب لنا الأخ ثروت ردوده دون أخذ ورد ومناقشة وجدل لكن أظن أن المناقشة أفضل كى يستريح الأخ ويعلم أن العدل سيأخذ مجراه .. فلا تؤاخذنا .

قال الحاج جودة وهو يزدرد الكلام : لا أبدا هذا أفضل .. لكن يا أخ ثروت لا داعى لتحبيكها ... أنت بين إخوانك ولست فى محكمة .. يعنى لا

داعى لإصرارك فى كل نقطة على أن تناقش وتسأل عن الأدلة وما إلى ذلك ... «اجعل بساطك أحمدى وصلى على النبى وفضفض» .

لم أرد عليه إلا بابتسامة غاضبة مقتضبة ... فعقب المهندس ممدوح قائلا : العمل يترك أثره على صاحبه يا حاج .. فالمهنة غلابة ... والمحاماة تركت بصمتها على أخينا الحبيب ... عموما سنستريح إلى أن يأتى الرد .

شرد ذهنى وأنا أنتظر فى مكانى عودة الرسول وكأننى كنت فى عالم آخر لا صلة له بهذا العالم أو كأننى فى جب سحيق انقطع عن الدنيا وما فيها ، وحين التفت بعينى وخرجت ببصرى إلى العمارة المواجهة رأيت قفصا للعصافير معلقا فى إحدى الشرفات ،فعادت ذاكرتى القهقرى حينما قال لنا المستشار مأمون الهضيبى عن مجموعة الوسط أنه يستطيع أن يجعلهم يسيرون فى الطرقات " بلابيص " !! ترى لماذا كان الرجل متأكدا من سطوته واثقا فى تهديداته ؟ !! ... ألأنه هو ومن سبقه من الآباء الأولين ممن كانوا على نهجه جعلوا من أعضاء الجماعة مجموعة من العصافير كتلك العصافير التى أراها الآن .. وأحكموا عليهم القفص .... لو فتح أحدهم الآن هذا القفص للعصافير فإنها حتما لن تغادر ولن تطير فقد أصبحت مهيضة الجناح ... لن تستطيع الانطلاق فهى لم تعرف الحرية من قبل ولم تتعلم الطيران .. وإن غادرت وقعت وتهشمت ، يبدو أننى لم أستطع الخروج من قفص الإخوان خوفا من الحرية ، لذلك عدت من جديد وأنا ألتحف حجة واهية كأنها ملاءة هواء.. علها تقنعنى بالبقاء فى ذلك القفص الذهبى الذى طرزوه بالإسلام وزينوه بالخلافة وأستاذية العالم فخلبوا لبى ،واستولوا على مشاعرى ... وهكذا وقع العصفور أسيرا فى القفص ، وقع حينما استلبوا مشاعره ودغدغوا عاطفته وأحاسيسه الغضة النقية ؟ وإذ يدخل الواحد منا إلى القفص يصبح بضعة منه ... حيث يتزوج من الإخوان ويعمل عند أحد من الإخوان ولا يصادق إلا من الإخوان ويستأجر شقته أو يشتريها من أحد من الإخوان .. فيكون جاره إخوان وزميله فى العمل إخوان وصهره إخوان وهلم جرا .. يعيش فى دائرة من الإخوان لا يعرف غيرها ... أنظر إلى ممدوح الحسينى نفسه ... الذين يعملون عنده إخوان ... والذين يقطنون فى عمارته بالحى الثامن إخوان وعديله إخوان وجيرانه إخوان .... وهكذا الكل ..انفصلنا عن المجتمع وكأننا نعيش فى جيتو .. لنا خصوصياتنا وأسرارنا

وقواعدنا ... دولة داخل الدولة وليس تنظيما فى الدولة ..!! لذلك صدقت يا هضيبى .. لو خرج عصفورك من القفص فإن أوامرك ستسرى على الجميع ... ستقاطعه ونزدريه وسنطرده من عمله وسيخاصمه جيرانه ... لذلك سيمشى فى الطرقات بلا غطاء فقد استتر بالإخوان زمنا ولم يعرف غيرهم وها هم يخلعونه .. ولكن .. ألستُ مختلفا عن هؤلاء ؟ فلماذا أرانى مكبلا فى قفصهم لا أستطيع مغادرته ؟ لم أتزوج ابنة أو شقيقة أحد منهم .. وليس فى مكتبى قضية من قضاياهم تغل لى مالا اللهم إلا القضايا التطوعية التى أنفق عليها أو قضايا المجاملات التى أتورع عن تقاضى أتعابها .. ولم أسكن فى عقاراتهم ولم أجاورهم ومعظم أصدقائى من خارج الإخوان .... هيا قم أيها الطير الجريح واقفز من قفصك وطر ... أجنحتك قوية وستحملك ... أنت ما جَرَعْتَ منهم إلا المشقة والأحزان وما أضافوا إليك إلا هذا القيد الذى يكبلك .. حتى أنك عندما كنت تبحر فى طريق الدعوة كنت تخطب فى المساجد بعيدا عنهم ... طر واخرج من قفص التنظيم إلى سماء الدعوة فالطير لا يصدح بالغناء الشجى إلا وهو على الأغصان حرا ..

أفقت من شرودى على صوت المهندس ممدوح الحسينى وهو يقول : صح النوم يا أستاذ ثروت .. فنظرت إليه مبتسما وتحشرج صوتى وأنا أقول : لم أنم .. ثم تنحنحت .

فقال الحاج جودة وهو يتضاحك معى : هنيئا لمن أخذ عقلك يا سيدى ... فنحن نحدثك من دقيقة وأنت سارح فى ملكوت الله .... لقد جاء الرسول بالرد يا أستاذنا

قلت بصوت خشن يشبه صوت من أفاق من غيبوبة فوجد ريقه قد جف : وأنا أنتظر من يقرأ لى هذا الرد

فأمسك المهندس ممدوح الورقة وأخذ يقرأ من خلال نظارة القراءة : بعد السلام عليكم ... قمت بإبلاغ كل الشعبة بالقرار وكان ذلك فى المعسكر السنوى للشعبة الذى تم فى رأس البر عام ١٩٩٦ ... نظر لى الحاج جودة وزفر زفرة كأنها مقدمة بركان بدأ فى الغليان .. إلا أن المهندس ممدوح أكمل القراءة وهو يتلعثم : وللعلم لم يكن الأخ ثروت حاضرا فى هذا المعسكر فلم يخبره أحد .. توقيع .. فلان الفلانى .

ابتلعنى الحاج جودة بعيون حانقة ثم قال وهو يكاد يتميز من الغيظ : ولكن

ألم تعرف خبر هذا القرار من أى أخ من الإخوة ؟

قلت بثقة : سمعت به من بعض الإخوة من عين شمس.. منطقتكم يا حاج جودة .

فغر المهندس ممدوح فاه من الدهشة ورفع الأستاذ مجدى حاجبيه بعد أن التزم الصمت طول الجلسة ثم قال وكأنه استغلق عليه الفهم : ها .. أنت عرفت إذن !! فلماذا الإنكار ووجع الدماغ والكلام عن الأدلة وما شابه ... حرام عليك يا رجل .

ابتسمت ابتسامة عريضة وأنا أنظر ناحية الحاج جودة ثم قلت له بهدوء : يا حاج ... أعطنى عقلك دقيقة ... لو جاء لك أخ تثق فيه من منطقة أخرى وليس لك عليه حق السمع والطاعة وقال لك إن الإخوان أصدروا أمرا للإخوة عندنا بعدم الإدلاء بأصواتهم فى الانتخابات البرلمانية أو المحليات ... فهل ستنفذ هذا الأمر ؟

قال وهو يغوص فى تفكير عميق : لا طبعا ... يجب أن يتم إخطارى بالقرار رسميا وفقا للتسلسل التنظيمى .

قلت وأنا مازلت مصطحبا ابتسامتى أستخرج بها من داخلى ما تبقى فى قلبى من الصبر : الله ينور عليك ... هذه كتلك... أنظر يا حاج .. أنا رجل تنظيمى جدا .. إذا لم يأت لى القرار رسميا ومن الشخص المنوط به إبلاغى فلن أنفذه أبدا حتى ولو أخبرنى به المرشد شخصيا ... نحن يا حاج فى المنطقة تنظيميون للغاية هكذا تعلمنا وهكذا درجنا .

ضحك المهندس ممدوح الحسينى منهيا هذا الجزء من المحاكمة وهو يقول : عندك حق والله هذا كلام فى الصميم .

أشار له الحاج جودة كى ينتقل للجزء الثالث من المحاكمة فلبس ممدوح نظارة القراءة وتلا من ورقة أمامه " خالف قرار الحاج مصطفى المتضمن منعه من الخروج من بيته أثناء انتخابات المحامين وخرج طوال يوم الانتخابات ... وقد شهد عدد من الإخوة أمام المستشار مأمون أنهم شاهدوه وهو يحرض المحامين ضد قائمة الإخوان فى هذا اليوم "

وبعد أن تلا المهندس ممدوح الشق الثالث من قرار الاتهام خلع الحاج جودة نظارته الطبية وأخذ يمسح عدستها بطرف قميصه وهو يقول : ما رأيك يا أستاذ ثروت فى هذا الكلام

قلت وأنا أرفع كتفى وأمد شفتى وأقلبهما : والله يا حاج أنا فى قمة العجب والأسف والألم من وجود هذا الاتهام فى هذا التحقيق. إذ كان يجب على الإخوة التحقيق مع من زعم هذا الأمر الكاذب ومعاتبته.. ومع ذلك فليجب المهندس ممدوح فإنى أفوضه فى الإجابة وأثق فى دينه وخلقه ... واستطردت بنبرة استولت عليها سحابة من الحزن : ولله الأمر من قبل ومن بعد ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وعندما هم المهندس ممدوح بالإجابة أسكته الحاج جودة وقال وقد بدا أنه تأثر من لهجتى : أعرف يا أخ ثروت ... حكى لنا المهندس ممدوح أنك كنت عنده فى هذا اليوم والحاج مصطفى يعلم هذا وقال أننا يجب أن نضع هذا الأمر فى الاعتبار أثناء التحقيق معك ... والله لنقتص لك أيها الأخ الكريم وسترى العجائب التى ستبهج خاطرك وتسعد قلبك ... ولكن لى عتاب عليك .

قلت بمشاعر الابن المفعمة بالصدق والمتخمة بالحنان : اعتب كما تشاء يا حاج .

قال هامسا وكأنما يخشى أن تقع كلماته على أذن غريبة : هل يصح أن تكتب فى الصحف منتقدا إخوانك ؟... هل هذه أخلاقنا التى تربينا عليها ؟ لقد كانت مقالاتك هذه جزءاً من التحقيق ولكننا أغفلناها حرصا عليك وعلى وجودك بالجماعة .

قلت أبرىء نفسى : لم أنتقد الجماعة ولكن انتقدت بعض المحامين من الإخوان .

قال وكلامه يزداد همسا : الجزء يساوى الكل من انتقد البعض فقد انتقد الكل ... اسمح لى يا أستاذ .. أنت أخطأت .

قلت وأنا أستدرجه لمنطقى : هل لديك شك يا حاج أنهم ظلمونى ظلما بينا ؟ لقد عاينت بنفسك ورأيت أنهم قدموا ضدى شكوى كاذبة تزعم أنى خالفت قرار الحاج مصطفى وخرجت من بيتى ... وليس من رأى كمن سمع ... أليس هذا هو الظلم بعينه ؟ .

ـ نعم يا بنى ... أوافقك .. هو الظلم بعينه . ولكنه لا يعطى لك الحق فى نقد الجماعة جهرا .

ـ كيف هذا يا حاج يا لله عليك .. إن الله يعطينى إذا ظلمت الحق فيما هو أعلى من النقد ألم يقل الله سبحانه وتعالى (لا يحب الله الجهر بالسوء

من القول إلا من ظُلم وكان الله سميعا عليما)

- عموما سيكون هذا محل نظر إن شاء الله والله ولى التوفيق .. سعدنا بك اليوم وأرجو أن تغفر لنا ولإخوانك وتسامحنا ... صحبتك السلامة

وقفت وقفة اطمئنان وسلمت عليهم جميعا وقلت وأنا أهم بالانصراف : وعليكم السلام وأتمنى من الله أن تقيموا العدل .. ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى .

- سترى العدل الذي لن تنساه أبدا وستشهد لنا إن شاء الله .

- ومتى سيصدر القرار إن شاء الله

- سيصدر أقرب مما تتوقع فدع أمرك للذى لا يغفل ولا ينام .

خرجت إلى الطريق بعد أن أمضيت ثلاث ساعات كاملة أو أكثر قليلا داخل محكمة الإخوان وكان الظهر قد اقترب فتوجهت إلى أقرب مسجد كي أصلى الضحى وأنتظر الظهر ، دخلت المسجد وأنا أتحرق شوقا لمعرفة الحكم الذى سيصدر من المحكمة الإخوانية وكانت نفسى تحدثنى بأننى هزمت فلول الظلم لا محالة.